الفصل الثالث

معارك الصالحين

نهوض الطبقات الدنيا في الهند

«ما كان لتحرير الروح الذي أتى إلى الهند [منذ عام 1947] أن يأتي بوصفه انعتاقاً فقط. ففي الهند، حيث تتراكم طبقات المعاناة والكرب والقسوة طبقة فوق أخرى، يجب أن يأتي على شكل اضطراب. كان يجب أن يأتي على شكل غضب وثورة. أصبحت الهند الآن بلد المليون حالة من حالات التمرد الصغيرة».

ف. إس. نايبول[1]

تظهر كلمة «دارما» السنسكريتية مراراً وتكراراً في النصوص الهندوسية القديمة. وتترجم في العادة بمعنى «الواجب» أو «الدين». ومن يوصف بها يكون «صالحاً». لكن للكلمة طبقات متعددة من المداليل والمعاني[2]. فالنصوص القديمة تتحدث عن «واجبات» الحياة، حيث يجب أن يكون الفرد دوماً صادقاً، ويحترم الكبير، ويطيع القانون، ويتصف بالجود والغيرية. هنالك أيضاً «واجب» على الحاكم، حيث يجب على الملك أن يعزز التناغم والاستقرار. حتى الكون يجب أن يؤكد وحدة الأشياء جميعها وروحانيتها.

لكن «واجب» الطبقات هو الذي يقدم لنا أفضل رؤية ربما لكيفية نظر المجتمع التقليدي في الهند إلى ذاته. فلكل طبقة «واجب/ دارما» خاص بها، يحدد واجبات وقدرات منفصلة اعتماداً على الطبقة التي ينتمي إليها الفرد. في القمة هنالك «واجب» طبقة البراهمة العليا، الذي يمنحها حق السيطرة على الجوانب الروحية والدينية للمجتمع كلها. وهي تمتلك أيضاً «السلطة المقدسة» للكلمة، والطبقة الوحيدة التي يسمح لها بالقراءة والكتابة.

وتأتي بعدها طبقة المحاربين (كشاتريا)، الذين يتمثل «واجبهم» في السيطرة على العسكر وحكم العالم الدنيوي بوصفهم ملوكاً. فإذا أتت أسرة حاكمة جديدة من الطبقة الخطأ، فإن على الكهنة البرهميين ابتكار شجرة العائلة الضرورية لها من المحاربين. تقول النصوص: «كل من يحكم هو من طبقة المحاربين (كشاتريا)»[3]. وتأتي بعدها طبقة التجار (فايشيا) في الترتيب التقليدي. ومثلما رأينا، يعد بعض أفراد الطبقات العليا التجار طبقة من «اللصوص لكن باسم آخر»[4]. إلا أن لديهم واجباً مهماً يتمثل برعاية الحاجات المادية للمجتمع. ومن أدوارهم التقليدية رعاية العملة الرئيسة للهند القديمة: قطعان المواشي. فقد ارتقت البقرة بالتدريج لتصبح حيواناً مقدساً. رابعاً، هنالك طبقة «السودرا» التي تضم المزارعين والخدم وأحياناً الجنود المشاة في قاع المجتمع. وهؤلاء يحافظون على مسافة تبعدهم عن الطبقات الأخرى ولا يسمح لهم بسماع تلاوة النصوص المقدسة. وتؤكد قوانين مانو القديمة، التي حددت الواجبات الطبقية بالتفصيل، أن على كل طبقة الالتزام بصورة صارمة بـ «واجبها»: «من الأفضل أن تؤدي واجبك بشكل سيء من أن تؤدي واجب الآخرين بشكل جيد».

فيما وراء هذه التراتبيات، وخلف تخوم المجتمع، هنالك المنبوذون، الذين لم يمنحوا اسماً لطبقتهم. ولا ذكرتهم النصوص إلا في سياق النجاسة والتلوث: يجب ألا يلمسهم أحد من الطبقات الأخرى. ومن المحرم أكل الطعام الذي يحضره المنبوذون. وينحصر دورهم في أداء المهمات التي لا يفكر أحد من البشر بالقيام بها، مثل إزالة المخلفات البشرية، أو دباغة الجلود (من الأبقار التي نفقت بشكل طبيعي)، أو كنس الشوارع. وهم على درجة من القذارة والنجاسة بحيث أن عليهم في بعض أجزاء الهند تحذير الآخرين عبر طرق قطعتين من الخشب. سجل فا هسين، الرحالة الصيني البوذي الذي سافر إلى الهند في القرن الخامس الميلادي، مشاهداته عن «تلوث الاقتراب» من المنبوذين. ولاحظ أيضاً أن المنبوذين وغيرهم من أفراد الطبقات الدنيا هم الذين يسمح لهم فقط بأكل اللحم[5].

تصف النصوص الهندية القديمة عقوبات مختلفة للجريمة ذاتها، اعتماداً على طبقة مرتكبها. على سبيل المثال، إذا أهان فرد من طبقة السودرا برهمياً يواجه عقوبة

الإعدام، لكن إن قتل برهمي فرداً من السودرا فلا يواجه سوى عقوبة خفيفة (غرامة غالباً) تشابه تلك التي يتلقاها بسب قتل قطة أو كلب. أحد النصوص يذكر أن أي فرد من طبقة السودرا «يعلم بأسلوب متغطرس البرهميين واجباتهم سوف يصب الزيت المغلي في حلقه وأذنيه» (6).

هذه هي الروايات الوصفية التقليدية لأصول المجتمع الهندي التقليدي. لكن الدراسات الأحدث عهداً أظهرت عدم ضرورة فهم النصوص القديمة فهماً حرفياً. فثمة دليل تاريخي يظهر أن الهند القديمة كانت في الممارسة العملية، خلافاً لما وصف في صفحات الكتيبات الإرشادية، أقل تشدداً وتصلباً مما يفترضه كثير من الناس. وأن الطبقات استطاعت فعلاً تغيير ترتيبها عبر الحظ أو التحالفات. على سبيل المثال، يُعتقد أن أسرة موريا العظيمة، بزعامة الإمبراطور أشوكا، كانت تنتمي إلى طبقة السودرا أصلاً. ومع ذلك، نادراً ما تغيرت التراتبية الطبقية بوصفها نظاماً، حتى إن تمكنت جماعة أو أفراد من تحسين مراتبهم. ومن ثم، أعيد وضع أسرة موريا في فئة المحاربين (على الرغم من حقيقة أنهم بوذيون ورفضوا التراتبية الطبقية). أما انتشار الإسلام التدريجي ومبادئ المساواة التي ينادي بها بعد القرنين الثامن والتاسع فقد ألهم موجة من الحركات التحررية المناهضة للترتيب الطبقي داخل الهندوسية أثناء ما دعي بحقبة «العصور الوسطى» الهندية. هذه الطوائف المتحررة عرفت باسم «باكتي» أو الحركات الإيمانية التي أكدت على عبادة الله الواحد الأحد والمساواة بين البشر كلهم أمامه. وقد تمخضت عنها اضطرابات كبيرة واجتذبت الأنصار والمؤيدين من مختلف الطبقات. لكن بمرور الزمن، تحولت إلى طبقات جديدة وامتصتها بهدوء التراتبية التقليدية. كانت الهندوسية طريقة لتهدئة متحديها واستيعابهم. فهي في الوقت ذاته متصلبة ومرنة.

* * * *

تعد بلدة أورانغاباد، الواقعة في ركن قاحل من ولاية ماهاراشترا، ثاني أكبر ولاية في الهند، استثنائية من جوانب عديدة. فهي بلدة عتيقة متهالكة تعود إلى أيام حكم ولاية حيدر أباد، على بعد عدة مئات من الأميال إلى الجنوب، ومحاطة بالسهول الشاسعة التي

لا تميزها عن كثير من مناطق الهند المعاصرة. قنواتها المائية الضيقة طافحة بالقمامة. والذباب يتكاثر بأعداد هائلة في حر الصيف اللاهب الجاف. بل يمكن لهبة ريح أن تسفع الجلد. أما حركة المرور، ومعظمها من الدراجات الثلاثية والدراجات النارية، فتتجمع بكسل عند تقاطع السكك الحديدية، وتتوقف تماماً بين الحين والآخر أثناء موكب عرس صاخب. على الجادات التجارية الرئيسة، يمكن مشاهدة فروع إقليمية لمصارف، وأكشاك لشرب الشاي، ومتاجر تبيع الحلوى، كحال البلدات الصغيرة في شتى أنحاء الهند. ثم هنالك الأبقار المقدسة، التي تتغذى على أكوام القمامة وكل ما يلقى في الطرقات من مخلفات. البلدة تثير إلى حد ما مشاعر البهجة والكآبة معاً في نفس الزائر.

أورانغاباد هي أيضاً مركز لطائفة المهاريين، وهي طبقة من المنبوذين خرج منها بيمارو أمبيدكار. عمل أفراد الطبقة حمالين، ومراسلين، ونواطير، وأدلاء لأفراد الطبقات الأعلى منهم اجتماعياً. ومع أن المطلوب من جماعات الداليت الأخرى أداء مزيد من الأعمال المهينة، إلا أن المهاريين لا يسمح لهم أبداً بدخول المعابد، أو سحب الماء من البئر نفسها التي تشرب منها القرية*. ساعد أمبيدكار المهاريين على رفض أدوارهم التي خلقوا من أجلها. في حين أن الزعماء من الطبقات الدنيا الأخرى، إلى جانب المهاتما غاندي، أثاروا اهتمام الرأي العام وأيدوا السماح للداليت بدخول المعابد وشرب الماء من الآبار، لكن أمبيدكار استبعد أي احتمال بإحداث تغيير حقيقي في ذهنية الطبقة العليا الهندوسية. وأعلن أنه لا يريد دخول معابدها أبداً. كان يقول: «ولدت هندوسياً. لكنني لن أموت هندوسياً». وتطلب الأمر من أمبيدكار سنوات عديدة من الدراسة قبل أن يختار البوذية، التي اعتقد أنها أكثر ديانات العالم إيماناً بالمساواة بين البشر. وشملت فضائلها الأخرى حقيقة أنها هندية الأصل، بحيث لا يتهم بقلة الوطنية، كما يتهم أفراد الطبقات الدنيا الأخرى الذين يعتنقون الإسلام أو المسيحية. والأهم لأمبيدكار، الذي رفض أشكال الخرافات والطقوس كلها، أن البوذية هي الديانة الأقرب إلى الإلحاد. وأسس إحساسه بالدين على تعاليم البوذية الأصيلة -لا على التفسيرات اللاحقة- التي رفض فيها الفيلسوف وجود الروح والآخرة. اعتنق أمبيدكار البوذية رسمياً في بلدة ناغبور عام 1956، مع نصف مليون من

إخوانه المهاريين، فيما عدت واحدة من أضخم طقوس الهداية الجماعية في التاريخ. وتوفي بعد ذلك بقليل.

تنتشر تماثيل أمبيدكار في شتى أنحاء أورانغاباد وعدد لا يحصى من بلدات الهند الصغيرة الأخرى. زرت كلية ميليند، على الطريق المؤدي إلى كهوف إيلورا الشهيرة، التي تفاخر بأروع فنون المعابد الهندوسية والبوذية وأكثرها درامية الهند. أطلق أمبيدكار الاسم على الكلية نسبة إلى الملك الإغريقي الأسطوري ميليندا، الذي تحدى أي كاهن أو عالم أن يهزمه في الجدل الفلسفي. لم ينجح أحد في هزيمته طوال سنوات، إلى أن أتى راهب بوذي يدعى ناغسين إلى المشهد. في الجدل الذي دار بين الاثنين، أفحم الراهب الملك وحيره وأربكه. فاعترف بالهزيمة، وتنازل عن عرشه، وتبع ناغسين بقية حياته. «برأي أمبيدكار، كان الملك ميليندا رمزاً للأمانة الفكرية، وهي فضيلة اعتقد أنها مفقودة في الديانة الهندوسية»، مثلما قال إندراجيت ألت، مدير كلية ميليند.

كان أمبيدكار يهجس بالتعليم. ووجد استطلاع أجري في ظل الاستعمار البريطاني في أوائل القرن العشرين أن نسبة المنبوذين القادرين على القراءة أو الكتابة لا تزيد عن 0.13%[7]. ولا توجد إحصائيات حديثة لأن الأسئلة المتعلقة بالطبقات منعت عن الاستطلاعات، إلا أن التقديرات تشير إلى أن ثلث أفراد الداليت على الأقل يعرفون القراءة والكتابة في الهند اليوم. ويمكن القول باطمئنان إن غالبية طائفة المهاريين من المتعلمين. ونتيجة لذلك، اقتنصوا حصة أكبر من الوظائف الإدارية والمناصب الحكومية مقارنة بأي جماعة أخرى من الداليت. وهناك طبقة وسطى كبيرة الحجم من المهاريين يعيش أغلب أفرادها في أورانغاباد، وطبقة عمالية تعمل في المصانع وخطوط التجميع في البلدة. ومعظمهم تركوا قراهم ولم يعودوا إليها قط.

* «الداليت» تعبير شامل جامع. ثمة مئات من الطبقات الفرعية للمنبوذين في الهند (ومنها طبقة المهاريين)، التي تعيش منفصلة تقليدياً عن بعضها بعضاً ولا تختلط بالزواج. الأمر ذاته ينطبق على الطبقات العليا الأربع: البراهمة (طبقة رجال الدين الهندوس)، والكشاتريا (طبقة المحاربين)، والفايشيا (طبقة التجار)، والسودرا (طبقة المزارعين والخدم وأحياناً الجنود المشاة..). ولكل واحدة مئات الطبقات الفرعية، التي لا يختلط بعضها ببعض. لكن في الهند اليوم، يندمج كثير من الطبقات الفرعية لتشكيل طبقات أكبر حجماً.

عندما كان إندراجيت ألت طفلاً، جلس خارج المعبد في قريته أملاً بدخوله لكن دون جدوى. فاعتنقت عائلته البوذية وانتقلت إلى المدينة. «في أورانغاباد، أو بومباي، أو أي مدينة، تلقى معاملة محترمة. يمكنك أن تسير في الشارع دون أن يعرف أحد طبقتك»، كما قال إندراجيت، الذي يبلغ عدد طلابه 3600 نصفهم من الداليت. وتابع قائلاً: «لكن حين عدت إلى قرية أسرتي، لم يسمح لي أفراد الطبقات الأخرى، حتى وإن كانوا من الأميين، بدخول بيوتهم، أو حتى شرب فنجان من الشاي معهم. هكذا يعاملون عميد كلية جامعية. لا يمكنك الفرار من طبقتك في القرية حتى لو غيرت ديانتك».

أخذني البرفسور إندراجيت إلى غرفة تطل على الكلية، حيث اعتاد أمبيدكار استخدامها للنوم والدراسة بعد أن استقال من وزارة الشؤون القانونية في حكومة نهرو عام 1951. إذ قدم استقالته احتجاجاً على التأخر في إصدار وثيقة الحقوق المدنية الهندوسية، التي عدها جوهرية لتشجيع المساواة بين الجنسين (مثل منح البنات حق الميراث). انقسمت الوثيقة إلى أربع وثائق، وأصبحت سارية في نهاية المطاف في منتصف الخمسينيات. ضمت الغرفة، المشيدة على سطح الكلية على هيئة برج المعبد البوذي، بعضاً من أشياء أمبيدكار ومقتنياته، مثل لوح طويل من الخيزران عليه ثمانية أثلام تمثل سبيل بوذا باتجاهاته الثمانية للصلاح. إضافة إلى صور باهتة بالأبيض والأسود تظهر أمبيدكار وهو يضع نظارته المميزة ويرتدي ثياباً غربية ويتبادل الحديث مع عديد من رجال الدولة. وثمة أكاليل من الغار تطوق كل صورة. روى لي البروفسور قصة صبي قروي متعلم من المهاريين سبب الإذلال على ما يبدو لجماعة من البراهمة المتعصبين في المنطقة. فقد قال إن البراهمة المحليين أقاموا طقساً شعائرياً سنوياً لتقرير هل يكون موسم الأمطار القادم جيداً، عبر ملء رمز قضيبي يمثل الإله شيفا بالماء. استخدم الصبي معلوماته العلمية لدحض الطقس الشعائري. «هذا ما عناه أمبيدكار بالقتال ضد الطبقة. إنها معركة ضد الخرافات أيضاً».

لكن الفجوة تظل واسعة بين حياة المهاريين الذين بقوا في القرى والذين انتقلوا للعيش في المدن، مثل أورانغاباد. ففي القرى، أصبح بوذا مجرد إله إضافي يوضع إلى جانب

آلهة الهندوس الشعبية في منازل المهاريين، مثل شيفا، وكريشنا، ورام، وفيشنو. بل إن بعض الأسر تحتفظ بتماثيل صغيرة لأمبيدكار ضمن مجمع الآلهة لديها. وحين تحيض النساء، يبعدن تماثيل أمبيدكار عنهن لأنهن غير طاهرات (يصعب تصور أن يشعر زعيم المضطهدين بالإطراء لو كان حياً). وعلى نحو مشابه، يحيي القروي المهاري القروي الهندوسي بعبارة «جاي بيم» (عاش أمبيدكار)، للإشارة إلى أنه لم يعد من المنبوذين. لكن حين يتبادل المهاريون التحية يستخدمون عبارة «رام رام»، التحية الهندوسية التقليدية[8]. يزعم كثير من الأسر البرهمية أن بوذا هو تجسيد للإله الهندوسي فيشنو. ويبدو أن بعض المهاريين يوافقون على ذلك. إن اعتناق الديانة البوذية لم يغير كثيراً حياة المهاريين القرويين على ما يبدو.

في المدينة الأمر مختلف. فقد زرت حي أميت سوداركار، وهو ناشط شاب في منطقة مهارية في أورانغاباد. ومع أن المنطقة فقيرة، إلا أنني فوجئت على الفور بنظافة الشوارع مقارنة بالأجزاء الأخرى من البلدة. وفوق كل بيت رفرف علم البوذية العالمية المتعدد الألوان، وراية زرقاء تصور عجلة أشوكان، نسبة للإمبراطور البوذي العظيم. وداخل البيوت، هنالك صور لنجوم السينما ولاعبي الكريكيت. لكنني لم أشاهد آلهة هناك، بل مجرد صور صغيرة مؤطرة لأمبيدكار وبوذا. ومثلما هي الحال في عديد من المدن الهندية، تقع أحياء الداليت إلى جانب أحياء المسلمين. «نتفاهم مع المسلمين أكثر من الهندوس لأننا نتبادل الرعاية. قبل أن نتحول إلى البوذية كنا نأكل لحم البقر مع المسلمين». كما قال سوداركار. ومثلما هي الحال مع كثير من المهاريين الذين التقيت بهم، فوجئت بثقة سوداركار بنفسه. فهم جماعة من المتعلمين المثقفين. وكل من قابلته تقريباً كان إما من الجيل الأول أو الثاني من المتعلمين المهاريين الذين تملؤهم الثقة بالنفس. ويصعب تجاهل حجم التغيير الجذري الذي يمثله ذلك لجماعة ظل آباؤها وأجدادها وأسلافها على مدى مئات -وربما آلاف- السنين يعيشون حياة ذل وضنك ومهانة ومعاناة.

اجتمع حولي حشد من الناس، مثلما يحدث غالباً حين يظهر غرباء في الجوار. دعوني لزيارة المعبد المحلي. ولم أجد فيه سوى جدران زرقاء ولوحات لبوذا وأمبيدكار.

سررت لحقيقة أن لوحات أمبيدكار تصوره دوماً بشفتين زهريتين سميكتين، مثل شفتي بوذا. لكن لم يكن في المعبد أجراس ولا بخور ولا شموع. «نحن لا نصلي إلى بوذا لأننا نؤمن بأنه بشر - وليس إلهاً. نحن نصلي للسلام، أو نكتفي بالتأمل. أحياناً نأتي إلى هنا ونقرأ»، كما قال سوداركار. وأراد أن يعرفني بطبيب الأسنان المحلي، وهو مهاري يملك عيادة قريبة. العيادة مكيفة الهواء ونظيفة ومرتبة. قال الطبيب: «يأتي إلي مرضى من طبقات أخرى طلباً للعلاج». وأراد الحاضرون في العيادة تيقن أنني فهمت المضمون الكامل لحقيقة أن يسمح أفراد الطبقات العليا لطبيب أسنان من المنبوذين بإدخال أصابعه في أفواههم، فتمتموا قائلين: «تخيل ذلك!»، «إنه طبيب جيد»، «طبيب أسنان من المهاريين». كان معظمهم يتحدثون الإنكليزية -بصعوبة- إلى جانب الهندية، والماراثية، اللغة الرئيسة في ولاية ماهاراشترا. قال سوداركار: «التمييز ما يزال يمارس ضدنا -نحن لا نعيش في مجتمعات مختلطة، ويذهب أولادنا إلى مدارسنا الخاصة- لكننا أحرار ونعرف حقوقنا».

كان من الصعب مقاومة ضغوط زيارة مواقع أخرى توضح بعض إنجازات هؤلاء المهاريين الفخورين بأنفسهم. زاد زخم الجولة من تلقاء نفسه. المحطة اللاحقة كانت متحفاً مكرساً لحياة أمبيدكار، مع أن نصف الكتب في المكتبة تناولت حياة مالكولم إكس والفهود السود في أمريكا. فبعد وفاة أمبيدكار، تفكك حزبه، حزب الهند الجمهوري، إلى أحزاب وفصائل متناحرة. وأنشأت جماعة من الداليت، متأثرة بوحي مالكولم إكس، حركة فهود الداليت، التي مازالت موجودة حتى الآن، مع أنها لم تنشط كثيراً. «نشعر برابطة قرابة قوية مع ما عاناه السود في أمريكة قبل حركة الحقوق المدنية، وما عانوه في إفريقيا الجنوبية تحت حكم الفصل العنصري»، كما قال أمين المتحف. لكن ما عاناه المنبوذون -وما يزالون- كان أشد وأدهى من بعض النواحي. فأثناء الحكم العنصري، وفي أعماق الجنوب الأمريكي، كانت العائلات البيضاء تستخدم طهاة ومرضعات من السود. «أما الهندوس من الطبقة العليا فيفضلون الموت على السماح لمنبوذين بطهي طعامهم أو منبوذات بإرضاع أطفالهم»، مثلما قال أمين المتحف، وأضاف: «فهم أنجاس».

زرت بعد المتحف جامعة أمبيدكار، التي ظلت تدعى إلى أوائل التسعينيات جامعة أورانغاباد. وحتى في ذلك الحين استفز تغيير الاسم أعمال شغب قام بها هندوس غاضبون من الطبقات العليا، لكنهم فشلوا في إلغاء القرار. ثم دعوني إلى كلية صغيرة لتدريب الرهبان البوذيين تقع أسفل إحدى التلال الصخرية المحيطة بالبلدة. وبدا الرهبان، ومعظمهم في العشرينيات والثلاثينيات من العمر، أكثر تجهماً من معظم المهاريين الذين قابلتهم في البلدة ذلك اليوم. كانوا جميعهم يرتدون أثواباً خمرية اللون. تحدثوا إلينا عن السبب الذي جعل البوذية تختفي عملياً من الهند، الأرض التي ولدت فيها، في حين أنها تزدهر في كثير من مناطق آسيا الأخرى. وقالوا إن المراكز البوذية الهندية الكبرى في تاكسيلا ونالاندا (في باكستان وبيهار اليوم) قد نهبها البراهمة الذين خافوا من أن تضعف رسالة بوذا المساواتية قبضتهم المتحكمة بالمجتمع*. قال أحد الشباب المتحمسين: «دمروا البوذية لأنه لا يوجد فيها طبقات. فأين سيكون البراهمة دون طبقات؟». سألت لماذا لا يعتنق البوذية سوى قلة قليلة من الجماعات الأخرى من الداليت، مثل «الشامار»، العاملين تقليدياً في صناعة الجلود، أو «الفالميكيين»، طبقة الكناسين الذين ينظفون مخلفات الطبقات الأخرى؟ أجاب الرهبان إن كثيراً من جماعات الداليت الأخرى شعرت بالعداء تجاه المهاريين، مع أنها مازالت تنصب تماثيل أمبيدكار. «الطبقات العليا خبيرة في غسل العقول وتهديد الطبقات الدنيا وإرهابها وإجبارها على البقاء ضمن الهندوسية»، حسب تعبير أحد الأصوات الشابة. «إذ لا يفهم كثير من أفراد الطبقات الدنيا أن من المستحيل تغيير الهندوسية. فليس لها بابا ولا فاتيكان. والبراهمة مشهورون بمراوغتهم».

بدا التشخيص مثيراً. وكان من الصعب عدم الشعور بالتعاطف مع غضب هؤلاء. وساعد حديثي مع الرهبان وغيرهم من المهاريين أيضاً في توضيح حقيقة وجدها كثير من الأجانب، ومنهم أنا شخصياً، صعبة على الفهم: حقيقة أن الداليت وغيرهم من أفراد الطبقات الدنيا في حالة من الانقسام المرير وعلى درجة من العداوة تعادل عداءهم

* في الحقيقة، تعرض دير نالاندا للنهب على يد بعض الحكام المسلمين، لكن أدلة كثيرة تظهر أن الأسر المالكة الهندوسية في مرحلة أبكر من تاريخ الهند قمعت البوذية أيضاً.

للطبقات الهندوسية العليا. وتلك مشكلة حاول أمبيدكار مغالبتها. لكن الآن، بعد مضي خمسين سنة على رحيله، يمكن أن نضع موضع المساءلة حتى النجاح المحدود الذي حققه في توحيد بعض جماعات الداليت معاً ومع الطبقات الدنيا الأخرى. لقد أصبحت الهند، مثلما قال في. إس. نايبول، أرض المليون تمرد: بعضها عمليات تمرد للطبقات الدنيا على العليا، وغيرها عمليات تمرد للطبقات العليا (وبعض الطبقات الدنيا) على المسلمين، وعمليات تمرد أخرى للطبقات الدنيا على الطبقات الدنيا، والطبقات العليا على الطبقات العليا. لكن الهند أيضاً أرض التحالفات غير المتوقعة: بين أعداء الأعداء، وبين المسلمين والطبقات الدنيا، وبين الأفراد الذين كانوا يزدرون بعضهم بعضاً بالأمس وربما يفعلون ذلك في المستقبل. بل هنالك تحالفات في إحدى ولايات الهند الكبيرة بين الداليت والبراهمة (ضد الطبقات بينهما كلها). فالسياسة الهندية، مثل التحالفات الطبقية المتغيرة تحتها، تغلي في مرجل غريب، لتتحدى المقارنات السهلة مع أي مكان آخر في العالم.

كنت في باتنا، عاصمة ولاية بيهار في شمال الهند، لأراقب انتخابات الجمعية التشريعية المهمة التي تختار الحكومة القادمة في ثالث أكبر ولاية في الهند. قدمت للتو من مدينة حيدر أباد التي تضج بالحركة التجارية في ولاية أندرا براديش الجنوبية، وتعد القطب الجاذب لمعظم استثمارات البرمجيات الهندية. التغاير بين المدينتين صارخ. ففي حيدر أباد تنتشر فنادق الخمس نجوم مثلما تنتشر في أي مدينة غربية. ومعظمها يقدم خدمة لاسلكية حديثة تمكنك من استخدام الإنترنت عبر الحاسوب المحمول في أي مكان من المبنى. أما في أفضل فنادق باتنا فإن التشويش في نظام الهاتف الداخلي يصم الأذان ولا يمكنك حتى من التفاهم مع موظف الاستقبال: «ألو، ألو.. هل هذه مكالمة خارجية؟». لا، أنا أتصل من الغرفة رقم 212. «ألو، ألو.. هل لديك حجز مسبق؟». بالطبع لا يفكر أحد هنا بالإنترنت. وعلى نحو مشابه، وعلى الرغم من الازدحام المروري الخانق، إلا أن شوارع حيدر أباد معبدة ومريحة. في حين لا يوجد في باتنا، المدينة التي تضم ثلاثة ملايين نسمة، إشارة مرور واحدة تعمل بصورة جيدة. بل إن المدينة لم تغير أسماء شوارعها الاستعمارية. استمتعت بالقيادة في شارع بورينغ، الذي يحمل اسم أحد المسؤولين البريطانيين.

في الحقيقة، وجدت مدينة باتنا مكاناً مثيراً جداً. فقد اعتاد كثيرون الإشارة إليها بوصفها عاصمة «أرض لالو»، نسبة إلى أشهر وأذكى زعيم هندي من الطبقة الدنيا، لالو ياداف. فقد ظل هو وزوجته يحكمان الولاية منذ عام 1990 بفضل صيغة انتخابية قوية عرفت باسم «م – ي»، أي التحالف بين المسلمين وطبقة الياداف في الولاية. الياداف هم أضخم «طبقات الهند المتخلفة الأخرى» حسب التعبير الذي تستخدمه الحكومة ويشمل معظم طبقات السودرا. وهم طبقة رعي الأبقار التقليدية في شمال الهند لكنها أعلى مرتبة نسبياً من المنبوذين المهاريين أو الشامار. وفي ولاية أشد انقساماً طبقياً من أي ولاية أخرى في الهند، قدم تحالف المسلمين والياداف للالو ياداف نسبة حصينة بلغت 30% من الأصوات في أربعة انتخابات متعاقبة. لكن في هذه الانتخابات، بدا تحالفه منشقاً بالنزعات. وبدأت التحالفات الطبقية الأخرى باجتذاب بعضاً من أغنى الناخبين المسلمين والياداف، الذين ملوا سياسة لالو القائمة على الهوية الطبقية، التي جاءت على حساب النمو الاقتصادي والقانون والنظام.

في الأسبوع الذي كنت أزور فيه باتنا، هيمنت على الأخبار حادثة اختطاف تلميذ صغير من المدرسة الخاصة بالنخبة التي تدرس باللغة الإنكليزية في البلدة. كانت تلك خامس حادثة من نوعها في خمسة أشهر. فعمليات الاختطاف في ولاية بيهار ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالصناعة الرئيسة فيها: السياسة. ولم يكن من قبيل الصدفة ازدياد حوادث الاختطاف زيادة حادة مع اقتراب موعد الانتخابات. فخوض الانتخابات في واحدة في دوائر الولاية الـ 243 يكلف مبلغاً يتراوح بين 10 – 50 مليون روبية (200 ألف – مليون دولار أمريكي)، وهو مبلغ هائل في ولاية لا يزيد متوسط الدخل السنوي للفرد فيها عن 15 ألف روبية (300 دولار)[9]. وبغض النظر عن منتجاتها المكونة أساساً من المانغا وثمار الليتشي التي تصدرها إلى الولايات الأخرى، ليس في بيهار صناعة فعلية. ومصادر الدخل الرئيسة فيها هي المنح والهبات التي تتلقاها من نيودلهي، والتحويلات المالية من ملايين القرويين الذي هاجروا إلى العاصمة، أو مومباي، أو البنجاب لأداء أعمال مؤقتة في القطاع غير الرسمي. ومعظم أفراد الطبقة الوسطى هربوا من الولاية.

قال الدكتور أجاي كومار، الذي يدير عيادته الخاصة في باتنا، واستقال للتو من رئاسة مجلس بيهار الطبي: «لو عرفت حينذاك ما أعرفه الآن لما عدت إلى بيهار قط». فقد عمل طبيباً في الخدمة الصحية الوطنية في بريطانية حين قرر العودة إلى باتنا عام 1984. وبدا مظهره، بسترته الزرقاء وأزرارها الذهبية، متنافراً مع المكان في بلدة من الحكمة ألا يبرز المرء ويشتهر. وبوصفه ينتمي إلى طبقة ملاك الأراضي التقليدية في بيهار، وطبيباً مؤهلاً، فهو يجمع الطبقة العليا والطبقة الوسطى معاً (ولا تجتمع الطبقتان دوماً، فكثير من فقراء البراهمة يعيشون في القرى). وهو يعد في نظر الطبقات الدنيا «إقطاعياً»، وفي نظر المختطفين هدفاً رئيساً. «أنام والمسدس تحت وسادتي»، كما اعترف عندما كنا نتناول الشاي في عيادته، في حين بقيت عينه مسمرة على شاشات الدارة التلفزيونية المغلقة التي تراقب مدخل العيادة. «أنا أتلقى تهديدات على الدوام بالاختطاف أو الابتزاز. الوضع يائس هنا. معظم زملائي رحلوا، ولن يعودوا ثانية».

زعم الدكتور كومار أن الخاطفين والشرطة فريق واحد. وقال أيضاً إن رجال الشرطة يتصرفون وكأنهم موظفون عند سادتهم السياسيين. في وقت مبكر من زيارتي، تحدثت مع الدكتور دي. بي. أوجا الذي كان رئيس شرطة الولاية التي تضم خمسة وسبعين مليون نسمة قبل أن يضطر إلى التقاعد. ومن تجاوزات أوجا اعتقال محمد شهاب الدين، عضو البرلمان عن حزب لالو، الذي واجه تهماً متعددة بالقتل والخطف والابتزاز. وفي مقابلة على محطة التلفزيون الوطنية هدد شهاب الدين أوجا بالقتل. يبلغ عدد أعضاء البرلمان في نيودلهي الذين لديهم «خلفية إجرامية»، أي أنهم اتهموا رسمياً بجريمة أو أكثر لكنهم لم يدانوا، مئة من أصل 545[10]. وما إن ينتخبوا حتى يصبح من المستحيل عملياً إدانتهم، وهذا هو الدافع الأصلي لدخول معترك السياسية في المقام الأول. وبالمقابل، تقدم ثروة زعماء العصابات وقوتهم حافزاً للزعماء السياسيين، مثل لالو، لتبنيهم بوصفهم مرشحين للانتخابات. ومن بين زهاء مئة من أعضاء البرلمان المجرمين، كما يُزعم، تحظى بيهار وأوتار براديش بحصة الأسد منهم. وكل من يقف في طريقهم، مثل أوجا، يخاطر بالتعرض لعواقب وخيمة. وعلى شاكلة كومار، قال أوجا إن العمر لم يعد يسمح له بمغادرة ولايته، لذلك يدير عرضاً «من رجل واحد» لمحاربة الفساد السياسي.

«لدينا قوانين ممتازة، حتى في بيهار. ومشكلتنا في أولئك الذين يفترض بهم أن يدعموا هذه القوانين»، كما أخبرنا مفوض الشرطة المتقاعد. وأضاف: «عندما يصبح الحراس لصوصاً، لماذا يأخذ الناس القانون على محمل الجد؟».

كان السؤال وجيهاً، ورأيت أنه يستحق أن يطرح على لالو ياداف. لالو عضو أيضاً في البرلمان في نيودلهي. واتهم في أواخر التسعينيات بالفساد في فضيحة تتعلق بالعلف الذي تدعمه الدولة. وبعد أن سجن مدة قصيرة، تنازل عن منصب رئيس وزراء الولاية لمصلحة زوجته، رابري ديفي، التي رأست الولاية منذ ذلك الحين. لكن الاتهام الرسمي لم يمنع لالو من شغل منصب وزير السكك الحديدية في الهند عام 2004، وهذه الوزارة مهمة في الحكومة التي يرأسها مانموهان سينغ. وحزب لالو هو ثاني أكبر الأحزاب المشاركة في حكومة سينغ الائتلافية المتعددة الأحزاب، بعد حزب المؤتمر. الحكومة مزيج غريب من التكنوقراط المدينيين، مثل سينغ، والزعماء الريفيين الغلاظ، مثل لالو. بعض المراقبين يئسوا من تنافرها، لكن غيرهم تبنوا فلسفة أكثر تعقيداً. في حفل أقيم بعد الانتخابات بقليل، قال لي أحد زملاء سينغ: «أعتقد أن علينا جميعاً دراسة تاريخ فساد السياسة الأمريكية في بدايات القرن العشرين. وسيثبت أننا نظل قادرين على الارتقاء إلى مرتبة القوة العظمى». التشبيه معقول بما فيه الكفاية: فاقتصاد الهند استمر في النمو بنسبة 7% سنوياً منذ عام 2004.

لكن اقتصاد بيهار انتقل من سيء إلى أسوأ. فالولاية يسكنها أكبر عدد من القرويين، حيث تبلغ نسبتهم 90%. ومعظم أرياف بيهار بعيدة كل البعد عن المشاهد الريفية الرومانسية. إذ لا تصل الكهرباء إلا إلى أقل من أسرة واحدة من بين عشر أسر في الولاية؛ ولا يستطيع سوى بيهاري واحد من بين عشرين ركوب الدراجة ثلاثية العجلات؛ ومتوسط العمر المتوقع هو الأدنى في الهند، حيث يقل بخمسة عشر عاماً عن معدله في ولاية كيرالا، حيث يحظى معظم السكان بالدواء، والتعليم، والكهرباء[11]. ولا يوجد هنا وظائف حقيقية. فاقتصاد الولاية هزيل إلى حد أنه يجمع 0.7% فقط من عائدات ضرائب المبيعات الوطنية في الهند، مع أنها تمثل 7% من السكان. ولا يوجد سوى أقل

من جهاز تلفزيون واحد لكل أربعين بيهارياً[12]. وفيما يتعلق بالترفيه، يعتمد كثيرون على لالو، الذي تجتذب خطبه العامة جماهير حاشدة يقدر عددها بمئات الآلاف. فهو ذكي وفطن وبارع (في أثناء الحملة الانتخابية الأخيرة، أعلمه أحد المراسلين أن هيما ماليني، الممثلة الهندية المتألقة، قالت إنها واحدة من معجبيه [/fan/ تعني بالإنكليزية مروحة أيضاً]، فرد قائلاً: إذا كانت «مروحتي» فأنا مكيف هوائها!).

كان هذا لقائي الثاني بلالو، وكنت متوتراً قليلاً. فبعد المقابلة الأولى قبل سنتين، كتبت مقالة انتقدها لالو علناً. كان يجلس في حديقته مع مجموعة كبيرة من المساعدين، وقد أرخى الليل سدوله. تحدث بأسلوب هازئ ولّد كثيراً من الضحك. قلت في المقالة: «ملأت الجو رائحة الحشيش دون أدنى شك»[13]. اعتقدت أنني على صواب لأن الرائحة كانت واضحة، ووافق الشخص الذي رافقني آنذاك. لكن لالو غضب*. وأبلغ الصحافة المحلية وكل من يريد الإصغاء إليه أن الصحافيين الغربيين يريدون دوماً تشويه سمعته: «إنهم في عصبة واحدة مع البراهمة»، كما زعم.

في هذه المناسبة، ثبت أن من الصعب الدخول إلى المبنى الذي يسكن فيه لالو، مع أن السبب لم يكن مقالتي السابقة. فمنزله مطوق بمئات الأشخاص الذين يهتفون بالشعارات. كانت أمسية شتائية والهواء مثقل بالضباب. واضطرت سيارتنا إلى السير ببطء خوفاً من صدم أحد المتجمهرين. كان من الصعب معرفة الشعارات التي يهتفون بها. وجدت لالو وسط كتلة من الميكروفونات والكاميرات، حيث كان يعقد مؤتمراً صحفياً في حديقته. وما إن تخلص من الصحفيين حتى انضمت إليه وزوجته في الشرفة. كان مستلقياً على مقعد من الراتان وقد وضع دثاراً على كتفيه في حين كان يدفئ راحتيه قرب النار. قدمت زوجته الشاي بالليمون مع حلوى بيهارية. سألت لالو ما الذي حققه برأيه لبيهار على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية. فقال: «أعظم إنجازين حققناهما العدالة الاجتماعية والتناغم الطائفي. لقد زودنا المسحوقين بالشجاعة. ويمكن للداليت الآن رفع رؤوسهم عالياً. إذ لم يعودوا ضحايا اضطهاد البراهمة وملاك الأراضي. والمسلمون في أمان.

* الحشيش (الماريجوانا) مسموح به قانونياً في معظم أجزاء الهند وفي كثير من ولاياتها، ومنها بيهار، وهو يباع في منافذ مرخصة حكومياً. لكن يقتصر استخدامه كما هو مفترض على الاحتفالات الدينية المقدسة.

هزمنا المتطرفين القوميين الهندوس». كان معظم ما قاله صحيحاً. لكن بيهار لا تخضع لحكم القانون. «كلما كتب أحدهم عن بيهار يتناول مشكلات القانون والنظام أو العنف الطبقي. لأن وسائل الإعلام في الهند خاضعة لهيمنة الطبقة العليا. حتى الأجانب خدعوا بهذه الأمور». ثم أضاف قائلاً إن صحفياً من «فايننشال تايمز» اللندنية كتب قبل سنتين أنه شهد الماريجوانا تدخن في حضوره. قلت له: «هذا أنا» فأجاب بارتباك: «لا، لا، بالتأكيد ليس أنت. لم يكن يشبهك، فهو.. «. قلت بإلحاح إنه أنا. فقال بانزعاج: «لا يهم. لابد أن السبب سوء الفهم الثقافي. هذا يحدث بسهولة». أعترف بأني سحرت بإحراجه وارتباكه. فقد اشتهر في طول الهند وعرضها بشتائمه البليغة الوجيزة. أثناء حملة الانتخابات الوطنية عام 2004، أشار إلى أن الانتخابات يجب حسمها عبر سباق للجري بين زعيمي الحزبين الرئيسيين، سونيا غاندي، أرملة راجيف الإيطالية المولد التي يبلغ عمرها تسعة وخمسين عاماً (وحليفة لالو)، وأتال بيهاري فاجبايي، رئيس الوزراء الهندوسي القومي (في السبعينيات من العمر). وكان فاجبايي قد أجرى منذ مدة قريبة عمليتين جراحيتين في ركبتيه، لذلك فهو لا يستطيع المشي إلا بصعوبة بالغة، فضلاً عن الركض. لكن حتى أصدقاء رئيس الوزراء أضحكتهم دعابة لالو.

سألت لالو عن الحشد الجماهيري الصاخب خارج مسكنه. «هؤلاء أهلي وشعبي وهم يهتفون لي»، كما قال. تبين أن في الغوغاء مرشحين طامحين للانضمام إلى حزب لالو في الانتخابات القادمة. قال: «حين أشق طريقي عبر الحشود، أرخي الستائر حتى لا أرى وجوههم»، فابتهج الحاضرون. ثم تحولت المقابلة من الهذر إلى التجول. فقد أصر على أخذي في جولة في المجمع، الذي حوله إلى حديقة مصغرة لحيواناته المفضلة، ومعظمها من البقر، التي يبلغ عددها زهاء مئتين. هنالك أيضاً حصانان عربيان أبيضان. فأثناء مدة سجنه في أواخر التسعينيات، قال لالو إنه شاهد رؤيا أمره فيها كريشنا، الإله المفضل لدى الياداف، أن يصبح نباتياً ويرفق بالبقر. والتزم لالو منذ ذلك الحين. قلت: «يبدو أنك تحاول أن تصبح برهمياً». لكنه تجاهل الدعابة. ولد لالو في قرية فقيرة في ولاية بيهار وقضى طفولته في حالة مزرية من الفقر المدقع، يرعى قطيع القرية حافي القدمين رث الثياب. لكن أولاده التسعة الآن تلقوا تعليمهم في مدارس تعلم باللغة الإنكليزية.

إحدى بناته تعيش في سنغافورة ومتزوجة من مدير شركة متخصصة في البرمجيات. نحن الآن داخل مأوى البقر، وعرفت أن لكل بقرة اسمها الخاص. هنالك عشرات من الموظفين الذين يرعون القطيع (بدوام كامل). أشار إلى واحدة وهو يربت يده بودٍ على رأسها: «هذه هي الأثيرة عندي». ثم وضع يديه الاثنتين أمام وجهها وقال: «هذه يد لالو وتلك لرام [أقوى منافسي لالو في الانتخابات]». لم تتحرك البقرة عندما رفع اليد التي تمثل رام، لكن شيئاً غريباً حدث بعد ذلك. فحين رفع يده الأخرى -التي تمثله- أومأت البقرة برأسها مؤكدة إذا جاز التعبير. بحثت عبثاً عمن يكون قد شد ذيلها أو رسنها لكن من غير طائل. إذ لم يكن في الأمر خدعة. ولابد أن ذلك كان نتيجة ساعات وساعات من التدريب!

بعد بضعة شهور، خرج حزب لالو من الحكم في ولاية بيهار، مع أنه احتفظ بدوره المركزي في الائتلاف الوطني وبقي لالو وزيراً للسكك الحديدية. امتدح كثير من المراقبين انتخابات عام 2005 بوصفها تصويتاً لصالح «الحكم الرشيد» بعد خمسة عشر عاماً من حكم لالو وحاشيته الفاسد. لكن ائتلاف أحزاب الطبقة الدنيا والعليا الذي هزمه في الانتخابات قد تجمع معاً بطريقة تجمع ائتلاف لالو، واستخدم الأساليب نفسها لتملق الهوية الطبقية. قاد الائتلاف نيتيش كومار، وهو وزير سابق للسكك الحديدية أيضاً، أتى من طبقة دنيا أخرى تدعى كورمي. لكن كومار وحلفاءه اختاروا مرشحين لهم تاريخ أكثر رسوخاً في الإجرام مقارنة بمرشحي لالو. حتى في الهزيمة، ظل منطق لالو سائداً. وليس لدي شك بأنه سيعود إلى الحكم مجدداً.

* * * *

تطلب الأمر من زعماء الطبقة الدنيا في الهند عقوداً من الممارسة للتضلع من تعقيدات الديمقراطية الهندية. وتفوقوا على غيرهم فيها. ففي السياسة الهندية، يتمتع ناخبو الطبقة الدنيا بميزة لا تساعد كثيراً في مجالات الحياة الأخرى: الثقل العددي. نصف سكان الهند من الطبقة الدنيا، بشكل أو بآخر. فإذا أضفت مئة وخمسين مليون مسلم، وعشرات الملايين الذين نزحوا عن قراهم وبلداتهم، يمكنك آنئذ أن تصنف

نصف سكان الهند في فئة «الأقلية»[14]. ثمة ميزة أخرى تتمتع بها أحزاب الطبقة الدنيا: يجب على الأحزاب المنافسة غير الطبقية أن توسع رسالتها إلى أقصى حد ممكن. حزب المؤتمر يستهدف اجتذاب الجميع عبر التشديد على المشاعر الوطنية العلمانية والشمولية والاقتصاد المركزي. أما حزب بهاراتيا جاناتا الهندوسي القومي فيحاول اجتذاب الناخبين كلهم تقريباً، باستثناء المسلمين والمسيحيين (الهندوس يمثلون 85% من سكان الهند). من ناحية أخرى، يمكن لأحزاب الطبقة الدنيا أن توجه رسالتها دون رحمة إلى شرائحها الضيقة من السكان، لذلك تعد أكثر كفاءة وفاعلية في تجميع «مصارف* الأصوات الانتخابية». لكن ذلك يقيد أصواتها الإجمالية ضمن حدود الطبقة. فإذا سعت الطبقات الدنيا كلها نحو قضية مشتركة، واندمجت تحت مظلة حزب واحد يجمع بينها، فسوف تحكم الهند إلى الأبد على الأرجح. فما الذي يمنعها من ذلك؟

ثمة دليل مفتاحي في إشارات لالو المتكررة إلى كريشنا. وشخصيته الفريدة كثيراً ما استحثت عقد مقارنات تغاير بينه وبين زعماء الثوار والمتمردين على مر التاريخ، وقلة من هؤلاء استشاروا المنجمين أو استنصحوا العرافين، أو وجدوا وقتاً كافياً للصورة التخيلية الدينية. فقد ناضلوا لتوحيد شعوبهم ضد الملوك، أو الكنيسة، أو الإقطاعيين، أو الحكم الأجنبي. وكان خطابهم البلاغي شمولياً يعد بالمساواة والعدالة للجميع. أما لالو وزعماء ستة أو سبعة من أحزاب الطبقات الدنيا المهمة على المستوى الوطني في الهند، فيستهدفون فئة محددة من الناس. ويتجاهلون غيرهم ممن يعيشون في حالة الفقر المدقع ذاتها. يصف بعض المراقبين الأجانب والهنود أحزاب الطبقات الدنيا الهندية بأنها يسارية لأنها تمثل المحرومين والمضطهدين والمهمشين، لكن الوصف يرى «الغابة ولا يرى الشجر»، على عكس المثل الشائع. فكل حزب من أحزاب الطبقات الدنيا لا يمثل إلا شريحة واحدة من المحرومين والمهمشين. ولا يعمل السياسيون فيها على توحيد الطبقات الدنيا عبر استهداف القواسم المشتركة بينها، بل يبقونها متشظية ومنقسمة عبر التركيز على ما يفرق بينها. وهذا أقرب إلى السياسة الإثنية منها إلى السياسة الطبقية.

* مجموعة من الناخبين الذين يمكن ضمان أصواتهم بعرض سياسات تلبي مصالحهم الخاصة المتعلقة عادة بالدين أو الطبقة. (م)

ثمة حضور ظاهر لليداف (طبقة حزب لالو الدنيا الكبيرة العدد) خارج ولاية بيهار، خصوصاً في ولايتي أوتر براديش وماديا براديش الكبيرتين. أما نظيره في ولاية أوتر براديش فهو مولايام سينغ يداف، الذي سنقابل مساعده الموثوق، أمار سينغ، فيما بعد. وعلى شاكلة لالو، يعتمد حزب مولايام على دعم تحالف بين ملايين الناخبين اليداف والمسلمين الذين يوحدهم العداء المتزايد للبراهمة والداليت. وجمع أيضاً أصوات كثير من المنتمين إلى طبقة راجبوت، المتفرعة عن طبقة المحاربين التقليدية، كاشاتريا، التي ينتمي إليها أمار سينغ. وهو تحالف جديد محير بين الطبقات الهندية.

ينتمي لالو ومولايام كلاهما إلى (جمعية) «مهاسابا يداف لعموم الهند» ورأسها كل منهما سابقاً. طورت الجمعية إيديولوجية مثيرة للاهتمام: فهي تزعم أن اليداف كلهم متحدرون من نسل كريشنا، الإله الذي صورته الملاحم الشعرية بهيئة راعي البقر، المهنة التقليدية لليداف. ووفقاً لهذا الرأي، تعد مورثات اليداف نقية نقاء مورثات البراهمة – إن لم تكن أنقى. وأعلنت جمعية مهاسابا أيضاً أن لالو ومولايام هما تجسيدان لكريشنا. لكنها لم تشر إلى رأيها المتعلق بأنساب الطبقات الدنيا الأخرى، التي بقيت كما هو مفترض ملوثة كعهدها أبداً. وهذا ما قاله أحد الخطباء في المؤتمر السنوي للجمعية: «لقد اجتمعنا هنا من شتى أرجاء البلاد. نحن نتكلم لغات مختلفة.. وعاداتنا وتقاليدنا مختلفة لكننا نشعر بالوحدة والأخوة لأن الدماء نفسها تجري في عروقنا»[15].

وعلى شاكلة «الأساطير الأخرى المتعلقة بالأصول الطبقية»، يقول اليداف إنهم منعوا بالخداع أو الظلم التاريخي من احتلال مكانهم الطبيعي في الدرجات العليا من التراتبية، بين الأخيار والصالحين لا بين الطبقات النجسة الملوثة. وفي الحقيقة، عملت الطبقات الفرعية الكبرى كلها تقريباً على بناء أساطير مشابهة للفخر والاعتزاز بأسلاف مبجلين قطعت الصلة بهم عبر ضباب الزمن حيل البراهمة أو مكائد طبقة المحاربين (كشاتريا). وباستثناء المهاريين، الذين بقيت نظرتهم وأفكارهم متأثرة تأثراً شديداً بأمبيدكار، فإن معظم الطبقات المنبوذة، ومنها الكامار، تزعم التحدر من نسل إله أو راهب عظيم. وربما يكون الزعم الأكثر إثارة للاهتمام ذلك الذي تدعيه البيدا، وهي طبقة من العاهرات

اللاتي يزدريهن الجميع، على الأقل في ساعات النهار! إذ يزعمن أن هوية الطبقة تأتي من نسب أب، ويؤكدن، نظراً لأن معظم زبائنهن من رجال طبقة راجبوت، أنهن ينتمين إلى هذه الطبقة الأعلى مرتبة نسبياً على السلم. بل استأجرن كاهناً برهمياً لدعم هذا الزعم. ولم يتردد هذا في الإعلان، بأسلوب بليغ وجيز، أن المهم هو البذرة التي تزرع في الحقل، لا تربة ذلك الحقل[16]. ويميل رجال راجبوت إلى رفض الادعاء. لكن لم تؤخذ آراء زوجاتهم.

في معظم أرياف الهند، مازال التمييز الطبقي منيعاً وحصيناً ومتجذراً كعهده دوماً، ويقتل المئات سنوياً بسبب العنف الطبقي، بعضهم على أيدي رجال الشرطة. ووفقاً للحكومة الهندية، ما يزال العنف الذي تمارسه الشرطة ضد الداليت، الذين يعتقلون بتهم كاذبة، ممارسة روتينية في القرية الهندية: «أثناء التحقيق، تكون الإصابات التي يتعرض لهم الموقوف بليغة إلى حد يموت بسببها عادة»[17]. وعلى نحو مشابه، ما يزال الداليت يمنعون من دخول المعابد. لكن ما يثير الانتباه أكثر هذا العدد الكبير منهم الذين يريدون دخول المعابد في المقام الأول. فقبل سبعين سنة كتب أمبيدكار يقول: «المجتمع الهندوسي خرافة، فالاسم ذاته أجنبي، أطلقه المسلمون على السكان المحليين لتمييز أنفسهم عنهم. ولا يكتفي أفراد كل طبقة بالأكل معاً والزواج ضمن إطارها، بل إن لكل طبقة زياً خاصاً بها»[18]. وربما كان الوصف دقيقاً آنذاك، لكن من الصعب في الهند اليوم تميز الطبقة من اللباس أو الطعام.

ثمة تغييرات دراماتيكية حدثت في أساليب حياة الطبقات الدنيا أثناء العقود القليلة الماضية يمكن ملاحظتها عند تدقيق النظر. فربما يعتقد الأفراد العاديون من الياداف أنهم من نسل الإله كريشنا. لكنهم، مع أفراد الطبقات الدنيا الأخرى، تبنوا على نحو متزايد المعتقدات والعادات الخاصة بالطبقات العليا. ويسمي الباحثون والأكاديميون الهنود ذلك «السنسكرتة»، في إشارة إلى اللغة الكلاسيكية السنسكريتية التي ظلت حكراً على البراهمة[19]. والتعبير يمثل نزعة ينسخ بواسطتها أفراد الطبقات الدنيا ثقافة الطبقات العليا عبر الإيمان بالآلهة ذاتها، والتعبد في المعابد نفسها، والاحتفال

بالأعياد ذاتها. في مدن الهند، لا يمكن تمييز الطبقة إلا من الاسم غالباً. أما السمات الأخرى، مثل اللباس أو عادات الأكل، فقد أصبحت عامة تشمل الطبقات كلها. وأغنياء الطبقات الدنيا -مثل المزارعين الذين استفادوا من الثورة الخضراء، أو أولئك الذين وجدوا وظائف ثابتة في المدينة- يجددون أساليب حياتهم ويعيدون اكتشاف أنفسهم. فإذا دخلت منزلاً في إحدى مدن الهند اليوم فسوف يصعب عليك تمييز طبقة سكانه. فرموز الآلهة في المقامات المقدسة الصغيرة داخل منزل الأسرة متماثلة. وتتبع فيه طقوس الطبقات العليا التقليدية ذاتها.

لكن في عالم السياسة، تتحرك الطبقات الدنيا باتجاه معاكس لـ«السنسكرتة». فبدلاً من السعي لمحاكاة نماذج البراهمة، تستخدم السياسة للانتقام من الطبقات العليا والحصول على تعويض لمكانتها الاجتماعية المتدنية. وفي العادة تحصل على ما تريد، وبرنامج مناهضة التمييز الطبقي والعنصري (في الوظائف خصوصاً) هو الأضخم في العالم. ويتجاوز في النطاق والمدى نظيره في أمريكا. فنصف الوظائف الحكومية في الهند مخصصة لثلاث فئات مستقلة من المحرومين: الأديفاس، من ذوي الأصول القبلية الذين يمثلون 10% من السكان؛ والداليت الذين يمثلون -حسب الإحصاءات الرسمية- 12.5% من السكان؛ و«الطبقات الأخرى المتخلفة»، التي تشمل طبقات فرعية مثل الياداف، تمثل 27% من السكان. وهكذا، تخصص نسبة 50% من الوظائف الحكومية لهذه المجموعات. إضافة إلى أن كل ولاية تتبع نظامها المستقل في هذا السياق، وفي بعض الولايات، مثل راجستان وتاميل نادو، تبلغ حصة الوظائف الحكومية في الأقاليم الثلثين - ولا تخصص سوى قلة من الوظائف اعتماداً على امتحان تنافسي يحدد الأهلية والكفاءة. في الممارسة العملية، توزع غالبية هذه الوظائف بواسطة زعماء الطائفة المعنية وشبكاتهم من المحاسيب والأزلام، أو بيعها إلى مقدم أعلى سعر*، وهذا أشمل نظام للمحسوبية في العالم الديمقراطي.

توسيع هذا النظام هو البند الجدي الوحيد في جداول أعمال أحزاب الطبقات الدنيا وبرامجها. ولا ينشر أي منها «بيانات انتخابية» في مواعيد الانتخابات تحدد السياسات

* تقدم سائق مكتب مجلة «فانينشال تايمز» في الهند بطلب للعمل سائقاً في الحكومة. وأبلغ أن عليه دفع مبلغ 100 ألف روبية للحصول على الوظيفة. فلكل وظيفة سعرها المحدد.

المتعلقة بالاقتصاد، أو السياسة الخارجية، أو الدفاع. وما تعرضه كله على أنصارها ومؤيديها مجرد قدرتها على استخلاص مزيد من المكاسب والمنافع من الأحزاب الأكبر حجماً مقابل الانضمام إلى الائتلافات المتعددة الأحزاب. لهذا السبب منح لالو، الذي ساعد حزبه في وصول مانموهان سينغ إلى سدة الحكم في نيودلهي، وزارة السكك الحديدية، التي تشرف على قوة عاملة يبلغ عديدها قرابة 1.5 مليون شخص (تحتل المرتبة الثانية في العدد بعد جيش التحرير الشعبي في الصين، بوصفها أكبر مستخدم للعمالة في العالم). ولا تحظى وزارة الخارجية أو وزارة المالية بهذه الجاذبية، لأنها لا توفر هذا العدد الهائل من الوظائف. على نحو مشابه، حين ساعد حزب مولايام سينغ ياداف في دعم ائتلاف حكومي سابق في نيودلهي في التسعينيات، أصبح وزيراً للدفاع. الجدير بالذكر أن معظم صناعة الدفاع الضخمة في الهند تملكها الدولة. ولم يقدم لالو أو مولايام شيئاً يشابه خطة متسقة فيما يتعلق بكيفية إدارة اقتصاد الهند. وكان كل منهما معادياً لخوصصة مشروعات الدولة، لأن أي تقليص من حجم القطاع العام سوف يعني تقليص ما يملكه من وسائل لممارسة المحسوبية ومحاباة الأنصار والأزلام، ومؤيداً لتوسيع نظام حصص الوظائف في القطاع العام ليشمل القطاع الخاص. ومع أن ذلك يبقى احتمالاً بعيداً، إلا أن الأدلة تشير إلى أن كثيراً من شركات القطاع الخاص الأقدم عهداً تمارس فعلاً التمييز الديني والطبقي في سياسات التوظيف التي تتبعها. ومجرد ذكر تحصيص الوظائف على أساس الطبقة لا المؤهلات يصيب مجالس إدارة الشركات الهندية بالذعر.

* * * *

ما يمكن قوله عن لالو ومولايام يصدق أكثر على ماياواتي، زعيمة أكبر حزب سياسي للمنبوذين في الهند، «باهوجان ساماج» («أغلبية الشعب»). ومثل عديد من الداليت، تملك ماياواتي اسماً واحداً (دون كنية أو لقب)، لكن يشير إليها كثيرون من أفراد طبقتها باسم «بينجي ماياواتي» («الأخت الكريمة ماياواتي»)، اعترافاً منهم بأنها «أطول زعيمة». شغلت ماياواتي منصب رئيس وزراء ولاية أوتر براديش ثلاث مرات. وعندما استلمت الحكم أول مرة عام 1996، كانت أول امرأة من طبقة المنبوذين تحكم ولاية في تاريخ

الهند. وسرعان ما اشتهرت بأنها تبتهج حين تسبب القلق والإزعاج لموظفيها من أفراد الطبقة العليا. وفي السنة الأولى من حكمها أصدرت ألفاً وأربعمئة قرار نقل بحق موظفي الخدمة الإدارية الهندية، مسجلة بذلك رقماً قياسياً (ما يزال سارياً حتى اليوم). بعض كبار الموظفين كان عليهم الانتقال من مكان لآخر كل بضعة أسابيع ومواجهة ما يسببه ذلك من معاناة وتكاليف (تغيير مدارس أبنائهم مثلاً). بدت ثورة ميناواتي المصغرة تفتقد المنطق. اتهمها بعضهم بمحاولة إذلال البراهمة. وزعم غيرهم أنها حاولت جمع المال من موظفي الخدمة الإدارية الذي كانوا على استعداد لدفع رشاوى للسماح لهم إما بالبقاء حيث هم أو إعادتهم إلى وظائفهم الأصلية. أبلغني أحد مستشاريها أن «ماياواتي تحب أن تبقي البراهمة في حالة من القلق والانزعاج. وشعبنا في القرى يستمتع برؤية المشهد كثيراً». بعض المراقبين الآخرين، ومنهم مسؤولون في البنك الدولي، الذي تأثرت مشروعاته التنموية في ولاية أوتر براديش وتضررت كثيراً بسبب لعبة الكراسي الموسيقية هذه، لم تسرهم أساليبها كثيراً.

لم توافق ماياواتي على مقابلتي قط، نظراً لعدم اهتمامها بوسائل الإعلام الناطقة بالإنكليزية، أجنبية كانت أم هندية. لكن في إحدى المناسبات، اقتربت منها. كان هناك حشد ضخم من الداليت في بلدة غايا في شمال الهند، قرب معبد بودغايا الشهير، الذي بني في البقعة التي بلغ فيها بوذا مرحلة التنوير الروحاني تحت شجرة (التين) المقدسة. جرى اللقاء الحاشد في ميدان ضخم في مركز البلدة وحضره آلاف الأنصار والمؤيدين الذي كانوا يهتفون لها. بعد أن أنهت خطبتها، غادرت المنبر وتوجهت نحو سيارة «أمباسادور» كانت في انتظارها لتنقلها إلى حوامة على بعد مئتي متر تقريباً. حملت بطاقة الصحافة بيدي ملوحاً وتمكنت من الاقتراب منها. لكن قبل أن أقترب أكثر، اعترض سبيلي أربعة رجال عرفت من نظاراتهم الشمسية المعتادة ومسدساتهم أنهم من مرافقيها. استطعت أن أصرخ طالباً منها الموافقة على لقائي. رمقتني ماياواتي بارتياب مدة ثانيتين، ثم ركبت السيارة، قبل أن ينطلق موكبها إلى الحوامة المنتظرة، ورجال الأمن يركضون حوله شاهرين أسلحتهم. لوحت ماياواتي للحشد بطريقة آمرة من الحوامة. ثم غابت عن النظر متوجهة إلى اجتماع حاشد جديد لأنصارها في ميدان آخر.

قلة نادرة من زعماء الهند اليوم يمكنهم الاعتماد على مثل هذا الولاء من ناخبيهم كما تفعل مایاواتي. ويقول المحللون المختصون بالانتخابات إن حزبها يتمتع بأكثر «مصارف الأصوات» انضباطاً في الهند. فمهما كانت الظروف، وبغض النظر عن سجل أدائها في المنصب، يمكن لحزبها أن يعتمد على أصوات خمس ناخبي ولاية أوتر براديش، التي تعادل تقريباً نسبة الداليت من سكان الولاية البالغ عددهم 170 مليون نسمة. وحتى بعد اتهام مایاواتي في عام 2003 بمنح عقود لشركات الإنشاءات المفضلة لبناء مجمع تسوق ضخم قرب تاج محل الشهير، إلا أن عدد الأصوات المؤيدة لها لم يتراجع. لكنها أجبرت على التخلي عن خططها لجلب «لاس فيغاس» إلى أعظم معلم من معالم الهند الأثرية.

يتمثل جدول أعمال مایاواتي أساساً في تعيين مزيد من الداليت في الوظائف الحكومية. أسس معلمها ومرشدها الروحي كانشي رام، «حزب أغلبية الشعب» في ثمانينيات القرن العشرين بعد أن منع من أخذ إجازة من وظيفته الحكومية بمناسبة ذكرى عيد ميلاد أمبيدكار، وهو يوم عطلة رسمية. الحادث ألهب مشاعر سنوات من الإحباط، زعم فيها رام أن الموظفين من الداليت يحرمون من الترقية ولا يعاملون باحترام من زملائهم. وقصد من أجندة الحزب الجديد منح الداليت احترام الذات وتخصيص مزيد من الوظائف الحكومية لهم. «السلطة السياسية هي المفتاح الذي يفتح الأبواب كلها»، كما قال[20]. اتبعت مایاواتي خطاه، واستخدمت السلطة بأسلوب غاضب جعل كلاً من لالو ومولايام يبدو من السياسيين المعتدلين المؤيدين للإجماع والتوازن. وكثيراً ما ضمت خطبها في الحملات الانتخابية قوائم مطولة تفصل الأصول الطبقية لمرشحيها. ولم تحاول قط تقديم سياسات أو آراء عن الموضوعات العامة. في إحدى حملاتها التي خضعت لدراسة دقيقة، كرست 91% من خطبها لقضية «العدالة الاجتماعية»، أو الشيفرة الرمزية لـ«الوظائف الحكومية المخصصة للداليت»[21] وخلافاً لمعظم منافسيها، لم تشر مرة واحدة إلى قضايا مثل «الحكم الرشيد» أو «المشاعر الوطنية»، أو «الأسعار»، أو «الفساد».

يعد الداليت هذه القضايا عادة من الاهتمامات والهموم الكبرى في حياتهم اليومية، لكن حين يتعلق الأمر بالإدلاء بأصواتهم، يبدو أن خيارهم تمليه طبقة المرشح وحسب.

الخدمات الأساسية، مثل الطرق والكهرباء والوظائف، تعاني نقصاً خطيراً في أرياف أوتر براديش، ولذلك يحتاج الناخبون، خصوصاً من الطبقات الدنيا، إلى الوصول إلى الذين يتحكمون بها. تقاسم الخلفية الطبقية مع السياسي عامل مفيد. والدليل الذي يثبت التصويت لصالح السياسي أكثر فائدة. يقدم كانشان تشاندرا، الباحث في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا الذي أجرى هذه المسوح، الحجة على أن «الانتخابات في الديمقراطية المرتكزة على المحسوبية [مثل الهند] هي في الجوهر مزادات مخفية تباع فيها الخدمات الأساسية، التي يجب أن تتوافر للكل من حيث المبدأ، إلى الجهة التي تقدم أعلى سعر».

الانتخابات في أوتر براديش تتعلق أيضاً بقوة العضلات. فقد انحسر نفوذ حزبي المؤتمر وبهاراتيا جاناتا فعلياً في الولاية، وهي عموماً أهم ولايات الهند التسع والعشرين، حيث تضم 84 من الدوائر الانتخابية البالغ عددها 543 على مستوى البلاد كلها، إضافة إلى قرابة سدس المقاعد البرلمانية. ثمانية من رؤساء وزارات الهند الثلاثة عشر أتوا من أوتر براديش. لكن في هذه الأيام، لا يضاهي أي من الحزبين الوطنيين قسوة وعنف الحزبين الرئيسيين للطبقة الدنيا في الولاية.

* * * *

من أغرب المشاهد الانتخابية التي رأيتها في الهند مشهد المشاركين في حملة حزب مولايام ساماجوادي (اشتراكي)، الذين عبر موكبهم المؤلف من أربعين سيارة تقريباً (معظمها من طراز مرسيدس وتويوتا سفاري) شوارع الله أباد. كانت فوهات البنادق والمسدسات تخرج من نوافذ كل سيارة. أما الغرض فكان ترهيب الناخبين المتشككين، إضافة إلى التأثير فيهم. الحملة كانت تروج للانتخابات الفرعية في المدينة التي يقطنها أربعة ملايين، وحظيت بأهمية خاصة للمغول والبريطانيين، ومازالت مهمة حتى اليوم.

أطلق الانتخابات الفرعية اغتيال راجو بال، عضو حزب «أغلبية الشعب» في الجمعية التشريعية، في الشارع التجاري الرئيس مقابل صالة عرض للسيارات في وضح النهار. أصيب بال بأكثر من عشرين رصاصة. وزعم حزب ماياواتي أن عملية الاغتيال نفذت

لصالح أشرف أحمد، شقيق عتيق أحمد، ممثل المنطقة في البرلمان في نيودلهي عن حزب مولايام. اعتقل أشرف على الفور. لكن ذلك لم يمنعه من الترشح للانتخابات من زنزانة السجن. أما خصمه فهي بوجا بال، أرملة راجو الجميلة البالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً. وبدت على المنافسة -بين الأرملة الشابة التي تصارع قاتل زوجها- ملامح المأساة الشكسبيرية كلها.

أول من وافق على لقائي كانت بوجا بال. وبعد أن سرنا على طرق موحلة في الليل إلى قرية في ضواحي المدينة، استقبلتنا بال بردائها الأبيض، لون الحداد. تزوجت من راجو قبل بضعة أسابيع فقط. واحتشد خمسون أو ستون من أنصارها حولنا في فناء المنزل لمشاهدة المقابلة. وفي كل مرة أطرح عليها سؤالاً، كنت أتلقى الإجابة من شخص آخر. لذلك طلبت منها أن تجيب مباشرة. زعم حزب ساماجوادي أن حزب «أغلبية الشعب» كان يدير حملة تركز على الخوف الرهابي من الإسلام، نظراً لأن المرشح المنافس لبال مسلم الديانة. وزعم أيضاً أنها تحمل مسؤولية دخول المجرمين السابقين معترك السياسة في المدينة على عاتق المسلمين.

سألت السيدة بال هل تدير حملة مناهضة للمسلمين، فقالت بعد أن سمح لها بالإجابة مباشرة: «انظر إلى هؤلاء الناس حولنا. هذا مسلم، وهذا مسلم، وذاك مسلم.. اسألهم». أومأ الرجال الثلاثة رؤوسهم بسرور. ثم قالت إنها منعت من رؤية جثة زوجها، حيث أحرقتها الشرطة يوم اغتياله، بذريعة توقي اندلاع أعمال العنف أثناء جنازته. وزعمت أن مولايام، رئيس وزراء الولاية، أمر الشرطة بالتخلص من الجثة بهذه الطريقة. تحدثت أيضاً عن دفع مبلغ كبير من المال لمنع الكشف عن ملابسات الجريمة. لم تثبت صحة أي من هذه الادعاءات، لكنني لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بشجاعة المرأة الشابة. وعندما كنا نغادر المكان، وضع أنصارها أكاليل الغار حول أعناقنا، كأنما نحن من الزعماء السياسيين. ولو رفضنا لعد ذلك إهانة. خسرت بال الانتخابات التي جرت في يونيو عام 2005 بفارق ضئيل.

مقابلة عتيق أحمد كانت أصعب. فالجميع يريد مقابلته. والوصول إليه يخضع لأنظمة وقواعد صارمة. وبعد عديد من الاتصالات الهاتفية الملحة في الطلب، سمح لي في نهاية المطاف بالدخول إلى المجمع المحاط بحماية أمنية مشددة والواقع قبالة المسجد المحلي في الجزء المسلم المكتظ بالسكان من الله أباد. كان هناك أسطول من السيارات (ذات الزجاج المعتم) يصطف أمام مدخل المسكن. وحين دخلت، كان أول ما شاهدته ترسانة من الأسلحة الموضوعة على شكل صفوف مستندة إلى أحد الجدران. وبينما كنت في انتظار عتيق، جلس والده الثمانيني وتبادل الحديث معي. كانت لحيته مصبوغة بالحناء، وأكمل لتوه حجته الثالثة إلى مكة. قال عن ولديه الكهلين: «ما يزالان طفلين» إذ لم يحج أي منهما إلى الآن. قاطع حديثنا شاب قال إن المقابلة أجلت لأن أحمد مضطر للذهاب بسرعة للانضمام إلى مولايام، الذي هبطت مروحيته في مركز المدينة لإلقاء خطبة أمام حشد انتخابي. وعلي أن أقابله في مقر حزبه في المدينة في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان يجلس في غرفة صغيرة على كرسي من البلاستيك ويتحدث بصوت مرتفع عبر هاتفه النقال.

قلقت قليلاً من طرح الأسئلة عليه، لكنه أشار إلي بود طالباً أن أجلس وطلب الشاي والحلوى. تدلت من أسفل خديه كتلتان من اللحم السميك، في حين برز في وجهه شارب كث وعينان ناتئتان. واصطبغت أسنانه بلون أحمر بفعل «البان» وهي خلطة إدمانية من جوزة الكوثل والليمون والتبغ، تمضغ لساعات. كان يضحك بسرعة. وحين سألته لماذا ادعى أن حزب الداليت يدير حملة قومية هندوسية، أجاب: «الداليت قوم يتصفون بالبساطة والطيبة. وبعضهم يظنون أن المريض يشفى بمجرد ربط حبل أصفر حول جذع شجرة. في السياسة، يتبعون زعيماً في الصباح وآخر بعد الظهر. فمن السهل جداً تضليلهم. ومایاواتي تتملق البراهمة لأنهم لا يحبون المسلمين ولا الياداف. وهذا ما حدث».

قلت إن معظم الناس يعتقدون أن الانتخابات هي نزاع بين عصابتين متنافستين من المافيا للسيطرة على المدينة. السياسة عرضية واتفاقية. بدت على أحمد المفاجأة، ثم ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الملطخة بالكوثل.

بدا أنه يقدر أهمية السؤال: «هذه كلها دعاية مغرضة ينشرها القوميون الهندوس. لا تلتفت إليها. ثمة هراء كثير من هذا النوع». سألته: «لكن ماذا عن هذه الأسلحة كلها لديك؟». أجاب: «ليست لي. بل هي لوكالات الاستخبارات التي أوكلت إليها مهمة حمايتي». لم أصدقه، لكن لم أجد داعياً لمتابعة هذه المسألة. قلت إن الناس يزعمون أنه لم يفعل شيئاً في مجال تنمية ولايته وتطويرها. قال وقد بدت عليه أمارات التفكير: «من الصعب جداً جلب التنمية إلى الهند. فهي بلد على درجة كبيرة من التعقيد والتنوع. وحين تقود سيارتك خمسين ميلاً باتجاه جنوب الله أباد ستجد أن العادات تتغير. عاداتنا شديدة التنوع. نحن [حزب ساماجوادي] نضيف طبقات جديدة إلى معادلتنا السياسية. لسنا مجرد ياداف ومسلمين، بل راجبوت أيضاً. وكلما زادت الطبقات التي نضيفها، سيحكم علينا الناخبون وفقاً لأدائنا لا لهويتنا».

قد يصدق هذا التوقع أولا يصدق في السنوات القادمة. ولكن المؤكد أن ميل أحزاب الطبقة الدنيا لتملق مجموعة أو أخرى من الطبقة العليا ينمو ويزداد. مثل هذا التحالف هو الذي يحاول لالو تفكيكه وتقويضه في ولاية بيهار. أما في أوتر براديش فتختار مایاواتي المرشحين البراهمة في المناطق التي تتركز فيها الطبقات العليا. لكن المنطق الكامن وراء حساباتها الانتخابية لا يتعلق بالتنمية والتطوير. ففي الحياة اليومية، يشعر كثير من العمال الزراعيين من الداليت بأنهم أكثر تعرضاً للاضطهاد من الأغنياء الياداف مقارنة بالموظفين الحكوميين من البراهمة. وقلة من البراهمة يعملون بالزراعة لكسب الرزق – إذ تحرم عليهم التعاليم المتعلقة بالواجبات الدينية القديمة لمس المحراث. لكن معظم الياداف من الفلاحين. لذلك، يستاء الداليت والبراهمة من الياداف ويخشونهم (لأن البراهمة يخسرون هيمنتهم التقليدية على المجتمع). وأي جدول أعمال تنموي قد ينتج عن هذا التحالف غير المقدس سيكون عارضاً وطارئاً.

لكن لم يتح مزيد من الوقت لمعرفة معلومات إضافية عن أحمد وبدا غير مهتم بقضية التنمية الاقتصادية. وقف وقادني عبر مقر الحزب إلى السيارة المنتظرة خارج المبنى. فتأهب قرابة مئة رجل كانوا ينتظرون خارج المكتب الصغير على الفور، معظمهم تسلح

بالبنادق والمسدسات. شعرت وكأننا نسير في معسكر حربي. وبدلاً من عضو برلمان، شعرت وكأن جنرالاً يودعني. ولم أفاجأ حين سمعت بعد بضعة أسابيع أن شقيقه فاز في حملة الله أباد الانتخابية.

بوصفي صحفياً، دخلت بيوت كثير من الأغنياء. لكن لم أشاهد منزلاً يضاهي المنزل الكائن في 27 لودهي إستيت في قلب نيودلهي. إنه المسكن الرسمي لأمار سينغ، عضو البرلمان عن حزب مولايام سينغ ياداف، ساماجوادي. فالمنزل المكون من طبقة واحدة (واحد من 204 مساكن مشابهة مخصصة في العاصمة لأهم السياسيين والمسؤولين الهنود)، يحظى بحماية رسمية من قوانين التراث في نيودلهي. فقد صممه، مثل معظم مباني المدينة، إدوين لوتينز. أثار أمار سينغ، الذي سمح لي مع صديق مشترك بالتجول في المنزل، جدلاً حاداً في الصحافة بسبب إدخال تعديلات باهظة التكاليف على المسكن. وأثناء جولتنا، حرص على توكيد أن التغييرات التي أجراها في الحقيقة مجرد «تحسينات».

مع أنه من طائفة الراجبوت، وهي طبقة أعلى نسبياً، إلا أن سينغ، الرجل المهيب الذي يقترب من الخمسين، واحد من أقوى اثنين أو ثلاثة من زعماء أحزاب الطبقات الدنيا في الهند. كانت ترافقه جايابرادا، الممثلة الهندية السابقة التي دخلت معترك السياسة في انتخابات عام 2004. ومع أنها عضو في البرلمان، إلا أنها كانت تخاطبه بكلمة «سيدي» دائماً. قال لنا: «لست متحمساً كثيراً لتجولكم في منزلي ومشاهدته بعد ما كتبته الصحافة عني. الصحفيون يأتون إلى هنا، ويأكلون زادي، ثم يكتبون ما يحلو لهم».

في الشهر نفسه الذي زرت فيه بيت سينغ، عين مولايام سينغ ياداف، بصفته رئيساً لوزراء أوتر براديش. سكرتيرة له أجمع زملاؤها وزميلاتها (في مؤتمر سنوي لموظفي الخدمة المدنية) على أنها ثاني أكثر الموظفين فساداً في الولاية. سبب تعيينها موجة عارمة من الغضب. وشملت الادعاءات ضد حزب ساماجوادي بيع الترشيحات الانتخابية لمن يدفع أعلى سعر، وقبول الرشاوى من الموظفين الراغبين بالانتقال إلى مناصب أكثر راحة، ومنح تراخيص صناعية مقابل مكاسب ومنافع، والتلاعب بالقرعة

لتخصيص أفضل الأراضي للأصدقاء والمحاسيب. أمار سينغ هو مؤسس ورئيس مجلس تطوير أوتر براديش، الذي يضم مجموعة من السياسيين ورجال الأعمال أطلقت عليهم وسائل الإعلام اسم «عصبة الأثرياء». من الأعضاء البارزين الآخرين أنيل أمباني، الذي يسيطر على أكبر شركتين في الهند: «ريليانس إنفو كوم» و«ريليانس إنرجي»؛ وسوبروتو روي، صاحب مجموعة صحارى، وهي شركة خاصة تعمل في مجالات متنوعة مثل الطيران والقنوات التلفزيونية والعقارات السكنية. قال لي سينغ وهو يؤكد أن مجلس التطوير جلب استثمارات جديدة إلى ولايته: «إذا كانت هذه منجزات عصبة الأثرياء فلن نخجل من الاسم». وماذا عن الاتهامات بالفساد الموجهة إلى حزبه؟ أقر سينغ قائلاً: «ربما هناك فساد هنا وهناك. إذ لا تستطيع التحقق من كل شيء».

جولتنا في المنزل بدأت من الحديقة. أخذنا سينغ لنسير إلى جانب السور الخارجي الذي أعيد بناؤه بالرخام الأبيض وقد نقشت عليه صور لكائنات ملائكية مجنحة، جمعت في توليفة هجينة غريبة بين الفن الإغريقي الكلاسيكي والفن الإباحي المعاصر. ثم دخلنا بناء ملحقاً شيده سينغ ويضم آلات لممارسة الرياضة. وفي الغرفة المجاورة هناك مسبح (جاكوزي) كبير من المرمر المرصع بالذهب. وبعدها دخلنا المبنى الرئيس الذي شيد أمامه درجاً لولبياً يقود إلى السطيحة التي تحولت إلى حديقة غطيت بالعشب ومساكب الورد. سألنا: «هل أعجبتكم». في الداخل، هيمنت على الغرفة الرئيسة صورة ضخمة لسينغ وعائلته، وانتصبت تماثيل صغيرة ذهبية مرصعة بالجواهر لكريشنا. لا يوجد ركن في الغرفة لم يزخرف بتحفة أو تذكار: وعاء فضي ساحر هنا، وزهرية أثرية لا تقدر بثمن هناك. في كل غرفة، استخدم سينغ أغلى الأجهزة الإلكترونية المنزلية في العالم: شاشة بلازما حجمها 60 بوصة من صنع بانغ وأولوفسن، يبلغ ثمنها في الهند 60 ألف دولار.

لكن سينغ، الذي كان يزداد إثارة باطراد، احتفظ بأعظم مفاجأة إلى آخر الجولة. أخذنا إلى غرفة الطعام الرئيسة. وبدا أنه هدم جزءاً من الجدار الجانبي لبناء كوة صغيرة تفضي إلى الحديقة ومحمية بشاشة زجاجية. وخلف الشاشة، هناك جرن مرمري صغير ينحدر منه شلال من الماء. أخرج سينغ ما بدا أنه جهاز تحكم عن بعد ووجهه نحو

السقف فوق مائدة الطعام. توقعت أن تبرز شاشة تلفزيون أخرى من السقف. لكن ضغط على الزر، وبدأ شيء غريب يحدث للسقف المبني من صخور ثقيلة (كما صممه لوتينز). فقد بدأ ينشق نصفين ببطء وصمت. كان من المستحيل معرفة ما الذي سيكشفه. حسبت أننا ممثلين في أحد أفلام جيمس بوند، وسينغ على وشك أن يطعم لحمنا للنسور. وبعد أن اكتمل انشقاق السقف شاهدنا منظراً مبهراً لسطح المنزل عبر موشور من هرم زجاجي صغير يشبه الهرم الزجاجي الرابض فوق اللوفر. وعكس الزجاج اللألاء أوراق النباتات الخضراء لحديقة السطحية. شهقنا، بفعل الصدمة والإعجاب. همس سينغ قائلاً: «الآن، هل تعتقدون أن هذه تحسينات أم مجرد تعديلات؟».

تركز معظم هذا الفصل على الانقسامات الطبقية العميقة في شمال الهند والفساد الذي يترافق معها غالباً. يعيش أغلب سكان الهند في شمال البلاد، وهذا يمنح المنطقة تأثيراً أكبر في طبيعة السياسة الوطنية. وكثير من الذين يئسوا من العلاقات الطبقية المرَضية في المنطقة أحياناً ينظرون بتشوق إلى الجنوب، خصوصاً ولاية تاميل نادو، التي يبدو أنها تجاوزت أسوأ حالات الصراع الطبقي. مازالت الطبقات موجودة في تاميل نادو، ومثلما هي الحال في الشمال، فإن الحزبين السياسيين الرئيسين فيها يركزان جهودهما كلها على تفكيك التحالفات الطبقية للخصوم والمنافسين. وعلى شاكلة أوتر براديش، لا يحظى حزب المؤتمر ولا حزب بهاراتيا جاناتا بحضور كبير في تاميل نادو، حيث يتقاسمان أقل من خمس تمثيل الولاية. لكن المسدسات نادراً ما تلعب دوراً في سياسة تاميل نادو، ولا يوجد سوى قلة قليلة من السياسيين في الجمعية التشريعية من ذوي «السوابق الإجرامية». توفر الولاية الخدمات الأساسية بدرجة أعلى من الكفاءة إلى معظم المواطنين. ويبدو أن الأمور تسير على ما يرام، إلى حد أدنى مقبول على الأقل. «نقدر أن ثلاثين بالمئة تقريباً من الموارد العامة تهدر في تاميل نادو، مقارنة بنسبة سبعين بالمئة في الشمال»، مثلما أبلغني أحد كبار المسؤولين في الولاية. ونتيجة لذلك، تنتشر في الولاية الطرقات المعبدة، وتدفقات كبيرة من الاستثمارات الأجنبية والمحلية، والاقتصاد يوجد فرص عمل عديدة. وليس من المصادفة أن تكون تاميل نادو الولاية التي تضم أكبر عدد من سكان

المدن الهندية، حيث يعيش فيها نصف سكانها (في حين تحتل ولاية بيهار المرتبة الأخيرة، بنسبة لا تتجاوز 10%).

تتمتع تاميل نادو، التي كانت من أوائل المناطق الهندية التي حكمها البريطانيون مباشرة في القرن الثامن عشر، بتجربة أطول من الشمال في التهييج السياسي الذي تمارسه الطبقات الدنيا. ففي ثمانينيات القرن التاسع عشر، عندما بدأ البريطانيون يصنفون الهنود وفقاً للطبقة لإجراء إحصاءاتهم، كانت مدينة مدراس معقلاً صاخباً لتطرف الطبقات الدنيا. فقد خصصت حكومة مدراس، كما كانت تعرف ولاية تاميل نادو بأسرها، حصصاً في وظائف القطاع العام للطبقات الدنيا في عشرينيات القرن الماضي، أي قبل ثلاثين سنة من تخصيص الهند نسبة من الوظائف الحكومية للداليت، وقبل سبعين سنة من توسيع نيودلهي الوظائف الوطنية لتشمل «الطبقات المتخلفة الأخرى». ولاية تاميل نادو تحمل الرقم القياسي في الهند في هذا السياق، حيث يشغل أفراد الطبقات الدنيا نسبة 69% من الوظائف الحكومية فيها. وكان لذلك عواقب حميدة وأخرى ضارة. العواقب الضارة تتمثل في صعوبة إصلاح البيروقراطية المتورمة في الولاية، أو غرس نظام الأهلية والجدارة. ومن المفترض أن معظم الحصص مؤقتة، لكن مثلما تقول الحكمة السائدة: «لا شيء أكثر ديمومة من إجراءات الحكومة المؤقتة». أما العواقب الحميدة فتمثلت في أن الطبقات العليا تعودت عبر عقود عديدة من السنين أن تنظر إلى «العدالة الاجتماعية» بوصفها جزءاً طبيعياً من السياسة، حتى إن لم تكن تعجبها.

ثمة جانب إيجابي آخر تمثل في بلوغ نسبة المتعلمين في الولاية 90% تقريباً (يبلغ عدد سكان الولاية ستين مليوناً)، مقارنة بنسبة 50% في ولاية بيهار. ويعزى ذلك إلى حقيقة أن تحرك الطبقات الدنيا في تاميل نادو بدء قبل زمن طويل من تحول الهند إلى ديمقراطية، وهذا يعني أن زعماء الطبقات الدنيا ركزوا بؤرة الاهتمام على مجالات أخرى لتمكين أتباعهم. ونتيجة لذلك، كان هناك تشديد أكبر على تعليم الجماهير وتثقيفها بوصفهما أوضح الطرق لرفع مكانتها الاجتماعية. ويمكن أن تتجسد الأسباب الأخرى في أن ولاية

تاميل نادو، مثلها مثل ولاية كيرالا المجاورة، تحظى بتجربة أكبر من الشمال مع النشاط التبشيري المسيحي في القرنين الثامن والتاسع عشر، مما يعني وجود فرص عديدة متاحة أمام أفراد الطبقات الدنيا للانتساب إلى المدارس. فضلاً عن ذلك كله، تقع ولاية بيهار وولاية أوتر براديش في عمق المناطق الداخلية البرية الهندية، في حين أن تاميل نادو ولاية ساحلية، ومن ثم كانت دوماً أكثر انفتاحاً على التأثيرات الأجنبية. إضافة إلى أن نسبة السكان البراهمة منخفضة جداً، حيث لا تتجاوز 3%، مقارنة بنسبة تتراوح بين 15- 20% في الولايات الشمالية. تعني هذه الديمغرافية الطبقية غير العادية أنه من الأسهل على الكل الاتحاد ضد الطبقات العليا وتحرير المجتمع من قبضتها. أخيراً، تستخدم ولاية تاميل نادو لغة وكتابة مختلفتين عن باقي الهند، ولذلك فهي محمية بدرع لغوية تصونها من النزعات السلبية المنتشرة في ولايات «الحزام الهندوسي».

قدمت ولاية تاميل نادو للعالم عرضاً مؤثراً لكفاءتها بعد إعصار تسونامي المدمر الذي اجتاحها في ديسمبر عام 2004. الهند ليست غريبة على الكوارث الطبيعية: فقد قضى الآلاف في ولاية أوريسا الساحلية عام 1999 حين ضربها إعصار هائل؛ والزلازل قتلت الآلاف في ولاية غوجارات الغربية عام 2001، وفي كشمير عام 2005. لكن لم تتمكن أي من هذه الولايات من الاستجابة بكفاءة وهمة تاميل نادو عام 2004، لكارثة لم تقل تدميراً عن الكوارث الأخرى التي شهدتها الهند في العقود الأخيرة. فقد قتل عدد يتراوح بين 15 – 20 ألف شخص نتيجة موجة المد الكاسحة التي ضربت ساحل الولاية.

قمت بزيارة إلى منطقة كودالور، التي تبعد مئة ميل تقريباً إلى الجنوب من تشيناي. قتل في المنطقة عدة مئات وتشرد عشرات الألوف من سكانها. لكن بعد أقل من سنة على الكارثة، أعادت حكومة الولاية إسكان المشردين جميعهم تقريباً في منازل جيدة التأثيث. في حين ما يزال المشردون –في عام2006– الذين دمرت منازلهم نتيجة إعصار ضرب ولاية أوريسا قبل سبع سنوات يعيشون في المخيمات. ومعظم الذين التقيت بهم في كودالور كانوا من الطبقات الدنيا، لكنهم يعرفون حقوقهم حق المعرفة. «في أوريسا، تخشى النساء

الخروج من أكواخهن والتحدث معي. أما في تاميل نادو فمن الصعب أن توقف النسوة عن الكلام»، حسبما قال جوزيف وليامز، الطبيب التاميلي الذي قدم العون في الكارثتين.

في إحدى القرى التي أصيبت بأضرار جسيمة، زرت الملاجئ المؤقتة لاستيعاب معظم القرويين الثلاثة آلاف. كانت الملاجئ غير مكتملة، لكنها أفضل تجهيزاً من المساكن العشوائية التي تؤوي ملايين الناس في أحياء الفقر في بومباي ودلهي وكالكوتا. يستخدم اللاجئون أيضاً مراحيض صحية تنظف يومياً. تجمع العشرات للإجابة عن أسئلتي، وكثيراً ما قاطعت النساء الرجال. وهذا أمر نادر الحدوث في الشمال. يمكن للتعليم أن يصنع المعجزات ويضاعف ثقة الناس بأنفسهم. بعض النسوة كن يعقدن مقارنة بين المعونات والتعويضات المادية التي يتلقينها فعلاً، وبين ما يعلن في الصحف. سألتني إحداهن: «أين السبعمئة وخمسين مليون دولار التي تعهد البنك الدولي بتقديمها؟». وقالت أخرى: «لم نتلق التعويض إلا عن أربعة وثمانين قارباً في حين فقدنا ستة وتسعين». سألت من فقد قريباً أو عزيزاً. رفع الجميع أيديهم. ثم سألت كم عدد الذين تلقوا تعويض المئتي ألف روبية عن القريب المتوفى. رفع الكل أيديهم مرة أخرى. لقد خصصت لهم جميعاً مساكن مجانية في بلدة جديدة كانت تشيد على بعد بضع مئات من الأمتار عن الساحل.

القرى مقسمة حتماً عبر الخطوط الطبقية. وأبلغني الأدلاء الذين يعملون مع منظمة «أكشن إيد»، وهي منظمة إغاثة غير حكومية، أن هناك «طبقة عليا من الصيادين»، و«طبقة دنيا من الصيادين»، يعيش أفرادهما في أجزاء مختلفة من القرية. لكن القرية الجديدة توفر مساكن مختلطة. وعلى غير العادة، كانت الطبقة الأقل تأثراً بالكارثة هي طبقة الداليت، الذين لم تسمح لهم مرتبتهم الاجتماعية المتدنية بالعيش قرب شاطئ البحر. أما الطبقة الأشد تأثراً فكانت «الطبقة العليا من الصيادين»، الذين عاشوا على شاطئ البحر في مواقع ممتازة. لاحت عبر أشجار النخيل أكوام لا نهاية لها من ركام البيوت المدمرة المنتشرة على طول الساحل الذي اجتاحه البحر اللازوردي الآن. سألت النساء عن مدى السرعة التي تلقين بها المساعدات. في زلزال غوجارات عام 2001، تأخرت معظم المساعدات، ومات المحتاجون أحياناً، في انتظار المسؤولين المهمين الذين

أرادوا أن تصورهم وسائل الإعلام وهم في زيارة المنطقة المنكوبة. وعرقلت طائراتهم الخاصة وصول طائرات الإغاثة التي كانت تحط أيضاً على المهبط الصغير لجلب المؤن. إضافة إلى ذلك، خضعت جهود الإغاثة إلى تنافس في غير محله بين مختلف منظمات الغوث في سبيل الوصول إلى المنطقة. أما حكومة ولاية غوجارات فقد فقدت السيطرة على الوضع تماماً. وبالمقابل، خصصت حكومة ولاية تاميل نادو وكالات إغاثة مختلفة لمختلف القرى واحتفظت بقبضة صارمة على تنسيق جهود الإغاثة برمتها. ولذلك لم تجتح الولاية أي أوبئة. «لقد حصلنا على المعونات بسرعة»، مثلما أقرت النسوة.

لم تنحصر كفاءة ولاية تاميل نادو النسبية في نظامها الذي اتبعته استجابة للكارثة. فلديها أيضاً أفضل سجل في إيتاء الخدمات اليومية للفقراء. ومن أهمها برنامج «وجبات الغداء» الذي يمثل حافزاً للأطفال للذهاب إلى المدارس للحصول على الطعام المجاني. البرنامج نجح في هذه الولاية في أغلب الأحيان. لكن في أنحاء عديدة من الهند نادراً ما نجح، ويعود جزء من السبب إلى تدني قيمة التعليم وأهميته في الشمال مقارنة بالجنوب، وإلى أن عائلات الطبقة العليا لا تسمح لأطفالها بأكل طعام تشتبه بأن طهاة من الطبقة الدنيا ربما حضروه. أما في تاميل نادو فلم يعد ذلك يمثل مشكلة على ما يبدو. صحيح أن الزواج ضمن نطاق الطبقة ما يزال هو المعيار السائد، لكن معظم الناس، باستثناء بعض البراهمة المقيمين في غيتوات صغيرة ومنعزلة في الولاية، الذين اشتهروا بغلوهم وتشبثهم العنيد بالقواعد الطبقية، تغلبوا على أكثر الجوانب إهانة وإثارة للاشمئزاز من قواعد التلوث الطبقي. وينطبق التغاير نفسه على المراكز الصحية. قالت جين دريز، إحدى المتخصصات البارزات في الاقتصاد في الهند، في مسح أجرته على العيادات الصحية في أرياف تاميل نادو: «العيادات نظيفة، ونشيطة، والعاملون مؤهلون. والمرضى يدخلون ويخرجون، ويبدو أن النظام مريح لهم. من الممتع رؤية ذلك كله، على عكس الأماكن الكئيبة والمهجورة والعدائية التي تدعى مراكز صحية في شمال الهند»[22].

لا أستهدف تمجيد ولاية تاميل نادو. فهي تعاني مشكلات مزمنة، مثل ضعف شبكات الماء في المدن وأنظمة الري السيئة في الريف. وفيها أيضاً خدمة مدنية عنيدة ترفض

الإصلاح. وتطلب الأمر من شرطة الولاية أكثر من عشرين سنة للقبض على فيرابان، أشهر مجرم في تاميل نادو. فيرابان، الذي يعده بعضهم بطلاً على طراز روبن هود، سرق الفيلة وأخشاب الصندل من أجمل المنتزهات المدارية في الولاية، ويقال إن عصابته قتلت مئات من الأبرياء على مدى السنين. واشتهر بدفع رشاوى إلى كثير من ضباط الشرطة والسياسيين المحليين، وهذا يفسر نجاحه في الهرب والإفلات من قبضة العدالة بسهولة طوال هذه المدة. لكن في نهاية المطاف، حوصر وقتل في عام 2004. منحت جايالاليثا، رئيسة وزراء الولاية، والسياسية القوية التي تذكر بمایاواتي، مكافآت إلى 752 من رجال الشرطة. حيث تلقى كل منهم 300 ألف روبية (7 آلاف دولار)، وقطعة من الأرض، وترقية. لكن طالب أكثر من عشرة آلاف شرطي في ولاية كارناتاكا المجاورة، الذين زعموا أنهم لعبوا دوراً في مقتل فيرابان، بمكافآت مماثلة، على الرغم من أنه أفلت منهم «بصعوبة» في مناسبات عديدة. وبعد أن رفض طلبهم، كان قائد شرطة ولاية كارناتاكا، المسؤول الكبير الوحيد في الولايتين الذي يظهر نوعاً من روح الدعابة فيما يتعلق بهذا الطلب العبثي: «لو فشلت العملية لما ادعى أحد مسؤوليته عنها. للنجاح آباء كثر، لكن الفشل يتيم»[23].

لكن مشكلات تاميل نادو تبهت بالمقارنة مع مشكلات معظم ولايات الهند الشمالية. ومع أن الولاية لم تتصد بعد لقضايا الخدمة الإدارية الكبيرة التي لا تخضع للمحاسبة، إلا أنها تمتلك شيئاً ثميناً لا يظهر في الشمال: المجتمع المدني. فمن الصعب جداً الاستيلاء على الأملاك العامة في تاميل نادو بسبب وجود طبقة وسطى كبيرة تقبل الحاجة إلى القواعد والأنظمة التي يجب على الكل اتباعها، حتى وإن لم تتبع دوماً. على المستوى السطحي، يتضح ذلك في الأنظمة والقواعد اليومية في مدينة تشيناي، مثل الأماكن التي يمنع فيها التدخين، في حين يجري تجاهلها دون اكتراث في نيودلهي مثلاً. والأهم، مثلما رأينا، أنه يتضح في التوفير الروتيني للخدمات العامة الأساسية للناس من مختلف المشارب بغض النظر عن خلفياتهم الطبقية. ربما يصعب قياس الثقافة المدنية والالتزام بالآداب العامة

في تاميل نادو، لكنهما يمثلان مصدر قوة ونفع يمنح الولاية تفوقاً اقتصادياً حاسماً على معظم ولايات الشمال.

يأمل كثير من دعاة الحداثة والتحديث في الهند أن تعبد تاميل نادو الطريق الذي سيتبعه الشمال - نحو مزيد من التسامح والتنافس المتحضر بين الطبقات في ميدان السياسة وغيرها. وتثبت الولاية أن من الممكن إضعاف المشاعر الطبقية، خصوصاً في الأماكن الحضرية. لكن الطبقة لم تختف بعد حتى في مدن الهند ومناطقها الحضرية. في استطلاع مفصل أجري على المستوى الوطني في يناير عام 2004، قال 74% من المبحوثين إنهم لا يوافقون على الزواج المختلط بين الطبقات[24]. ومن بين المتعلمين - وسكان المناطق الحضرية- من المبحوثين، لم يوافق سوى 56%. وعلى نحو مشابه، وافق 72% من المبحوثين كلهم على ضرورة أن يكون للأبوين القول الفصل في اختيار أبنائهم وبناتهم للزوج والزوجة. ومن بين المبحوثين الذين يعيشون في الأماكن الحضرية، وافق على ذلك 59%. من المؤكد أن من الأسهل في الأماكن الحضرية النجاة من القيود والوظائف والمحرمات الطبقية التقليدية التي تتحكم بالحياة في القرى. فمن الأسهل أن تخفي هويتك الطبقية في المدينة. لكن ذلك لا يعني بالضرورة التحرر من إسار الطبقة. إذ يجب التصويت لمصلحة الحزب الطبقي، والزواج من ضمن الطبقة، والعيش في مناطق سكنية يتجمع فيها أفراد الطبقة. صحيح أن احتمال أن يحاصر المرء في وظيفة أو عمل طبقي قد تراجع كثيراً، مقارنة بالوضع في معظم القرى، إلا أن الطبقة في الهند لا تظهر -في عالم السياسة على الأقل- أي إشارات تنبئ بأنها تضمحل وتنحسر.

هوامش

1- V. S. Naipaul, India: A MiiZion Mutinies Now (Vintage, London, 1998), p. 517:انظر

2- انظر: يعدد لانوي عشرات الفوارق الواهية في معنى كلمة «دارما»

Lannoy, Speaking Tree, , pp. 216 - 22.

3-Basham, The Wonder That Was India, p. 92.

4-Ibid., pp. 143 - 4.

5-Ibid., p. 67

6-Ibid., p. 81.

7-Pradipta Chaudhury in Seminar, 549 (May 2005), p. 26.

8- اقتبست هذه الملاحظات كلها عن الحياة في قرية ماهار من:

Neera Burra, 'Buddhism, Conversion and Identity' in M. N. Srinivas, ed., Caste: Its Twentieth Century Avatar, (Penguin India, New Delhi, 1996), pp. 155 - 69.

9- هنالك عديد من التقديرات المتفاوتة عن التكلفة الوسطية للانتخابات في الهند. وربما تأتي أفضل الأبحاث من هيئة لوك ساتا في حيدر أباد المختصة بمراقبة السياسة الهندية ورصدها: (http://www.prajanet.org).

10- البيانات مستمدة من تقرير مركز الشؤون العامة في بنغالور، وهو مؤسسة استشارية غير حكومية.

Holding a Mirror to the New Lok Sabha, by Dr Samuel Paul and Professor Vivekananda: (http://www.pacindia.org).

11-غالبية هذه البيانات مستمدة من إحصاء عام 2001، ومن مسوح العينات الوطنية التي ترصد المدخول الغذائي الشهري لفقراء الهند. أومكار غوساوامي، الذي يرأس مؤسسة استشارية في الهند، زودني بمعظم البيانات المجمعة.

12-Ibid.

13- Edward Luce, 'Beating Back the Brahmins', Financial Times magazine, 5 July 2003.

14-Myron Weiner in Ashutosh Varshney, ed., The Indian Paradox (Sage, New Delhi), p. 57:انظر.

15- Lucia Michelutti, whose instructive essay 'We [Yadavs] Are a Caste of Politicians': Caste and Modern Politics in a North Indian Town', appears in Dipankar Gupta, ed., Caste in Question (Sage, New Delhi, 2004), pp. 43- 72 :انظر

16-Anuja Agrawal, 'The Bedias are Rajputs: Caste Consciousness of a Marginal Community', in ibid., pp. 221- 45 :انظر.

17-National Human Rights Commission, Report on the Prevention of Atrocities against Scheduled Castes, 2004, p. 114.

18-The Essential Writings of B. R. Ambedkar, ed. Valerian Rodrigues (Oxford University Press, New Delhi, 2002), p. 267.

19- نحت التعبير إم. إن. سرينيفاس، أبو علم الاجتماع الهندي.

20-Kanchan Chandra's superb book, Why Ethnic Parties Succeed:

Patronage and Ethnic Head Counts in India (Cambridge University Press, Cambridge, 2004), p. 145 انظر.

21-Ibid., p. 206.

22-Jean Dreze quoted in World Bank, State Fiscal Reforms in India, 2004, p. 8.

23-Quoted in India Today, 8 August 2005, p. 49.

24- الاستطلاع الذي شمل 15 ألف شخص أجراه مركز دراسات تنمية المجتمعات لصالح محطة أي بي إن – سي إن إن الإخبارية.